حَلْقة مُفرَغة

حَلْقة مُفرَغة

مجموعة قصصية

فاطمة حمزة

الدخلاء

لا يعرف ما ذنبه ليُلقى به بجانب الطريق يتجاهله المارة وقد أصبح عُرضةً للغبار والكلاب والمشرَّدين، لم يعلم أهو سُوس نخر في عظامه، أم بِطانة اهترأت من حوله، أم قماشه البالي أم هي رغبة في التغيير من هؤلاء الدخلاء، أحفاد صاحب البيت، الذين ملوا شكله ومكوثه الطويل في ذلك البيت العتيق، ما كان في يده شيء إلا أن استسلم للواقع المرير، هو الآن في الطريق عرضه لكل عابر سبيل، ها هو هناك رجل عجوز رَثُّ الثياب يحمل بقجته القذرة يُلقي بجسده كاملًا عليه ليستريح قبل أن يكمل عمله بالتسول، وآخر يستخدمه فيرفع قدمه ليضعها على مقدمته، يعقد رباط حذائه بعد أن حرَّر نفسه، وهذا طفل سئم القيد، فجاب الطرقات بحثًا عن حريته، تأمل الكرسي فوجد من قماشه البالي فائدة، فاقتطع جزءًا منه ليحكمها حول قدميه الحافيتين تحميه حصى الطريق وحرارة الشوارع والأرصفة، لم يقتصر دور الكرسي في الشارع على ذلك بل امتد ليطمع أحدهم من أصحاب المحالِّ المجاورة في إحدى عظامه البارزة، فلا يتردد في أخذها يسند بها أحد الأرفف الذي كان على وشك السقوط بداخل متجره.

تذكَّر الكرسي يوم أن جاءه صاحب البيت العتيق وزوجته الجميلة، في أحد متاجر الأثاث الشهيرة بوسط البلد، يريد شراء بعض الأثاث الراقي لتجهيز بيته الجميل على النيل، وأشارت السيدة الجميلة للكرسي، وأبدت رغبة في امتلاكه، لم يكن هذا الكرسي وحده مشتريات الرجل في ذلك اليوم، وإنما كان ضمن مجموعة راقية، من قطع الأثاث الثمينة التي اشتراها من المتجر الشهير، وقف صاحب

المتجر يعرض الكرسي للرجل هادئ الصوت مألوف الوجه، يتفاخر التاجر بخشبة الزان ومُدهبه الراقي وقماشه المستورد من باريس، لم ينس الكرسي أول تعارف بينه وبين الرجل عندما اقترح عليه صاحب المتجر الجلوس ليشعر بفخامة الكرسي واتزانه وراحته، اشتم رائحة عطره، تلك الرائحة الهادئة، أحبها الكرسي، تبادل الرجل نفس المشاعر مع الكرسي الذي تمسك به ليس فقط لشعوره بالراحة عند الجلوس، وإنما شيء ما جعله يتمسك به ضمن مشترياته.

تذكَّر الكرسي أول يوم دخل فيه بيت الرجل على النيل، بيت أبيض تفوح منه رائحة الدهان الجديد، كان كل شيء جميل، استقبله أهل البيت من أسرة الرجل، زوجته وأطفاله الثلاثة استقبالًا مفعمًا بالسعادة والبهجة، دخل الكرسي مرفوعًا على الأذرع مغلفًا بورق فضي اللون، عبَر به العمال بحرص من باب البيت مخافة أن يُخدش، وضعوه ببطء في المكان الذي اختارته له السيدة الجميلة زوجة الرجل الهادئ، وكان مكانه هناك بالركن الخاص بالمكتبة أمام المدفأة، بجانب الشبَّاك المطل على النيل، بجانبه وضعت منضدة بقرص زجاجي مستدير فوقه فازة بها ورود متناسقة الألوان، يُسند قرص المنضدة الزجاجي على ساق مذهَّب يشكَّل علي هيئة طفلين بجناحين، يحملان الأقواس والأسهم، يمثلان كيوبيد إله الحب عند الرومان.

أحب الكرسي الديكور الفرنسي واطمئن كونه في المكان الملائم لتصميمه الكلاسيكي الذي يرجع لحقبة قديمة، ارتكز على أرضية مغطاة بالباركيه أعطاه شعورًا بالفخامة والأصالة، أثاث راقٍ وألوان فاتحة زاهية مشرقة، كل ركن بالبيت مليء بالأنتيكات والتحف وقطع الأثاث الكلاسيكية الفخمة، علقت من أمامه مرآة

كبيرة عكست له معظم نواحي البيت، تأمل بها سقفه العالي مليء بالنقوش والزخارف النادرة تتدلى منه النجفات النحاسية، زاد البيت سحرًا تلك الأبليكات المعلقة على الجدران ولوحات الجوبلان بألوان الطبيعة للعصور الملكية بفرنسا.

اهتز الكرسي في مكانه، بعد أن قامت عاصفة شديدة، هواء بارد وبرق ورعد وأمطار، حركت معها فروع الشجر من فوقه، ألقى بورقه الجاف عليه، سرعان ما عاد لذكرياته في البيت العتيق، تذكر يوم أن كانت السيدة الجميلة تجلس عليه بجانب المدفأة، وفي يدها فنجال من القهوة الساخنة، وعلى الزجاج تتساقط قطرات المطر، بدا عليها أنها حزينة تفكر في شيء ما لم يتداركه الكرسي، لكنه كان مستمتعًا وهو يتأمل عينيها الزرقاوين وأنفها الدقيق المدبب وشعرها الذهبي، يروقها أن ترفعه دائمًا لأعلى، كان يستلطفه ذوقها الرفيع فدائمًا ما ترتدي فساتين قصيرة بألوان ناعمة، لم تحِد أبدًا عن الرقي، حتى في اختيارها لقطع أثاث بيتها فكل ركن في البيت ينُمُّ عن ذوق رفيع، لكنه لاحظ أنها دائمًا ما تبدو حزينة.

كان الكرسي يشعر بقيمته لدى السيدة الجميلة، فهي تقدر وتهتم جيدًا بالقطع الثمينة في أثاث بيتها، فلا تسمح لأحد من أبنائها بالوقوف عليه بقدميه أو التأرجح به مخافة أن يتسخ قماشه، أو أن تكسر إحدى أرجله.

تذكَّر الكرسي يوم تواجد فيه بعض ضيوف السيدة، من صديقاتها وبناتهن لتناول فنجال من القهوة معها، وجلست إحدى بنات صاحبتها عليه، تتسلى وتستمتع بمشاهدة النيل، وقدمت لها السيدة كوبًا من العصير، إلا أنه وبعد دقائق قصيرة، وقع كوب العصير من يد الفتاة، وسرعان ما تشرَّبه قماش الكرسي، مما أثار انزعاج السيدة، ألقت بكلمات اللوم والعتاب على الفتاة وأشارت إلى قيمة الكرسي

الثمينة وقماشه المستورد من باريس والذي بسببها قد اتسخ، جراء تشرُّبه كوب العصير. وعلى الرغم مما بدا على الصديقة من حرج وإبدائها أسفها من فعلة ابنتها، إلَّا أن انزعاج السيدة لم يتوقف مما أثار غضب الصديقة التي أخذت ابنتها وخرجت على الفور من البيت.

لم تلتفت إليهم السيدة الجميلة بل نادت بصوت غاضب على الخادم وأصدرت أوامرها بتنظيف الكرسي مما أصابه. اشتد حزن الكرسي فور تذكرة تلك الواقعة، فها هو الآن مُلقى في الشارع متسخًا لا يبالي به أحد ولا يحزن عليه أحد.

تألم داخله وهو يتذكر يوم أن كان الابن الأصغر للسيدة الجميلة يلعب، يجري في حلقات دائرية من حوله، إلى أن تعثرت إحدى قدميه في السجادة الملقاة أسفل المنضدة المستديرة، فوقع وارتطم جبينه في إحدى أرجل الكرسي، وإذ بسيل من الدماء يتدفق من جبين الطفل، وعلى الفور أخذه والداه إلى المستشفى لخياطة الجرح وتعقيمه، لم ينس الكرسي تلك النظرة الغاضبة التي ألقاها الرجل الهادئ عليه، بعد عودته للبيت هو وابنه المصاب وزوجته، رمقه بنظرة لوم وعتاب لم ينسها أبدا.

اشتاق الكرسي لياليَ قضاها مع الرجل الهادئ في سلام فكان يفضله للجلوس عليه يرتدي بيجامة النوم من فوقها روب داكن اللون، يقرأ بعض الكتب التي دائمًا ما ينتهي بإلقائها على المنضدة أمامه ويتفرغ لاحتساء كوب القهوة والنظر للنيل، ثم يقوم من جلسته الطويلة حين يغلب عليه النعاس لينام استعدادًا لاستقبال يومٍ جديد في الصباح يبدأه بالجلوس على الكرسي يقرأ الجرائد اليومية ومن أمامه على المنضدة كوب من عصير البرتقال الطازج.

ظل البيت هادئًا يكبر الأطفال يومًا بعد يوم، ويمارس الرجل والسيدة أعمالهم اليومية في روتين حياتي كامل. ومازالت تلك النظرة الحزينة في عين السيدة الجميلة يلمحها الكرسي، ما كان يكسر الروتين إلا تلك الحفلات الراقصة للسيدة تدعو فيها كبار الحي من الرجال وهوانم المنطقة، لم تغِب عن ذاكرة الكرسي كلمات الترحاب من السيدة وتقبيل الايادي من الرجال لها تعبيرًا عن الرقي والمعرفة بالإتيكيت، تتبعها بعض الكلمات بالفرنسية تقديسًا للحياة الغربية التي عاشتها السيدة في باريس.

تذكَّر الكرسي إحدى الحفلات يوم أن جاء ذلك الشاب المهندم ذو النظرات الثاقبة، شعر بها الكرسي، وكانت تغزو روح السيدة الجميلة فتثقلها عبء الإحساس بالذنب ناحية الزوج المُحِبّ، كان الكرسي شاهدًا على كل شيء يدور في الخفاء، لمسات الأيدي الناعمة عند اللقاء والوداع، والنظرات الحانية المختلسة من الحين للآخر بين الرجل المهندم والسيدة الجميلة، والنظرة الحزينة، في عين السيدة عند الالتفات لزوجها.

استمرَّ الوضع لسنوات، تذبل فيه السيدة الجميلة يومًا بعد يوم، حتى جاء ذلك اليوم الذي دخل فيه الرجل ولم يكن هادئًا، ألقى بمفاتيح سيارته بعنف على المنضدة المستديرة وركل الكرسي بقدمه فأزاحه من مكانه ليرتطم بالحائط. لم تعد معه السيدة في ذلك اليوم ولا الأطفال، بل عاد وحده.

شعر الكرسي حينها بشيء ما حزين حدث بالبيت، ومرت الأيام لا يرى فيها السيدة، وبات يلمح الرجل تعكس له المرآة صورته أثناء خروجه وعودته، وبات قليلًا ما يجلس عليه لينظر النيل أو يحتسي قهوته، وشعر شيئًا فشيئًا بالإهمال

وسار يداهمه الشعور بالخوف من القادم ويغزوه ساعة بعد أخرى، وتأكدت مخاوفه عندما جاء ذلك السمين قصير القامة مستدير الرأس المليئة باللحم، لزيارة الرجل الهادئ في بيته، سابق السمين بالجلوس على الكرسي فما إن جلس حتى شعر الكرسي بآلام ضلوعه كاد أن يمزقها السمين، وبالرغم مما نما إلى ذهنه أن السمين شقيق الرجل الهادئ، إلَّا أنه لم يشعر بالراحة تجاهه، فهو لا يشبه الرجل في أي شيء، تحدث السمين عن السيدة الجميلة بكثير من الضيق، قال للرجل أنه حذره منها وأنها لم تكن يومًا له، وصفها بأنها سيدة متعجرفة تتكبر على أهله فلم تكن تزورهم أو ترحب باستضافتهم في بيتها، كما أن عائلتها المتواضعة لا تناسب عائلتهم ذات الأصول العريقة، وكونها لأم من أصول فرنسية جعلها لا تستطيع التأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم الشرقية.

قطع الخادم كلام السمين عندما دخل لتقديم التحية، أمسك الرجل بطبق الحلويات الشرقية وأكل بنهم وهو يكمل حديثه غير مبالٍ بمشاعر الرجل الهادئ الذي يتألم لفراق السيدة الجميلة، تكلم السمين كثيرًا دون توقف، فكان يأكل ويتكلم في آنٍ واحد حتى أنه أسقط بعض من فتات طعامه على الكرسي مما زاد من شعور الكرسي بالاستياء منه، تمنى لو رأته السيدة فتلحق به عقابًا وافيًا على فعلته تلك، تطرق السمين في الحديث عن شخصيات وأناس لا يُعير الرجل اهتمامًا لهم، غاص في موضوعات كثيرة تباعًا وما أن ينتهي من أحدها فيضحك حتى يحمرَّ وجهه، أما الرجل بدا وكأنه لم يسمع شيئًا من ثرثرة أخيه، اختفت ابتسامته الهادئة وأصبحت ملامحه جامدة وبدا عليه الحزن. شعر الكرسي بضيق الرجل الهادئ الذي بدأ في فك زر قميصه العلوى.

خلا البيت لسنوات من اللعب وضحك الأطفال وشجارهم، وافتقد كلُّ شيءٍ به لمساتِ السيدة الجميلة، ذبل الورد في الفازة القابعة على المنضدة المستديرة، وأهمل الخدم تلميع قطع الأثاث الراقية، ولم تعد الستائر تفتح بأوامر من الرجل، فمنعت أشعة الشمس من الدخول، وتراكمت الأتربة على زجاج النافذة من الخارج، فأصبحت رؤية النيل من النافذة مشوشة غير واضحة، وبين لحظة وأخرى فقد الرجل هدوءه، فكان دائمًا ما ينهر الخدم لعدم إزاحتهم الغبار من فوق قطع الأثاث الثمينة، وأصبح لا ينظر للنيل ولا يجلس على الكرسي طويلًا، بل ظل يقضي معظم وقته، إما خارج البيت أو بداخل حجرة نومه.

مرت السنوات بطيئة، غزا الشيب جوانب شعر الرجل، وتغير لون قماش الكرسي فبهت قليلًا وفقد لمعان مذهبه، وذات يوم كان الرجل جالساً يقرأ جرائد الصباح، حين رنَّ جرس الباب، أقدم الخادم ببطء، بدا عليه الهَرَم، فتح الباب، تفاجأ بشابين يافعين وامرأة يتقدمون بأول البهو، وبجانبهم أطفالهم.

قام الرجل من مجلسه، بعد أن ألقى بالجريدة على المنضدة المستديرة، واتجه نحوهم يدقق النظر ويعود بالذاكرة للوراء، يستعيد ملامح صغاره، ها هم أبناؤه وقد كبرت أناملهم، وتغيرت ملامحهم، ولم تعد أجسادهم تلك الأجساد الصغيرة اللينة التي كانت عندما غادروا البيت منذ سنوات.

انتاب الكرسي شعور بالبهجة، انتظرها لسنوات منذ أن غادرت السيدة البيت، لمح بملامح الشابين الكثير من الشبه بالرجل الهادئ، أما المرأة فلم تأخذ من أبيها إلا القليل كما أنها لم ترِث عينَيْ أمها الزرقاوين بل كانت خليط بين الرجل والسيدة الجميلة، غمره شعور بالفرحة وهو يرى اندفاع الأبناء تجاه والدهم في لهفة،

امطروه بالقبلات والأحضان وإلقاء كلمات الشوق والحنين، ملأت السعادة قلب الرجل وشاهد الكرسي البيت وقد عادت له الحياة من جديد، رفعت الستائر التي كانت تملأه بالظلمة، وأشرق البيت بشمس جديدة، وظهر النيل من النافذة بعد أن تم تلميعها وإزالة الأتربة المتراكمة عليها من الخارج.

كان الكرسي مستمتع بحديث الرجل وأبناءه، أي مواضيع تلك التي يتناولونها، لا يهم، المهم أن الصوت عاد للبيت بعد أن عم به الصمت طويلاً، تكلم الأب والأبناء كثيراً، حكوا عن السنوات التي عاشوها بالخارج مع أمهم بعد أن تم انفصالها عن أبيهم، تحدثوا عن الغربة ووحشتها، افتقادهم للبلد والأصدقاء والبيت الجميل الذي ما زال على حاله ما عدا بعض التغييرات التي أتي بها الزمان على أثاثه، كما أنه بدا أصغر قليلًا مما كان عليه في صغرهم، لفت نظر الأبناء تلك الصورة المرسومة بالزيت على الجدار للسيدة الجميلة ولم تكن موجودة من قبل، تكلم الأبناء عن أمهم بشيء من التأثر، قالوا انهم افتقدوها بعد أن رحلت عن عالمهم في باريس ودفنوها هناك، فكانت تعشق باريس وتجيد التحدث باللغة الفرنسية، أبدى الأبناء سعادتهم وأفرجوا عن قرارهم الذي اتخذوه قبل مجيئهم بنيتهم البقاء بالبيت العتيق وعدم العودة لفرنسا، سعد الأب كثيرًا بذلك القرار الذي أعاد إليه الحياة التي افتقدها منذ سنوات.

قرر الأبناء إلحاق أطفالهم في مدارس دولية يتعلمون بها أكثر من لغة وينتسبون لنظام أجنبي في التعليم يلائم العصر والتقدم العلمي، حكوا عن أزواجهم فقال الابن الأصغر أن زوجته سوف تأتي إليه في القاهرة بعد أن تصفِّي أعمالهما وممتلكاتهما

بفرنسا، وهي عربية من أصل فلسطيني، وتريد العودة، فهي مهتمة بقضية بلدها وبقائها في القاهرة يقربها أكثر من الأحداث.

قالت الابنة أن زوجها وهو مصري مهاجر، يسافر دائمًا لظروف عمله ولا يأتيها في السنة إلا مرتين أو ثلاث على الأكثر يقضي معهم بضعة أيام ويسافر معظم العام، قالت إنها اتفقت معه على قرارها بالعودة لمصر على أن يقضي زيارته لها وللأولاد في بيت أبيها بالقاهرة، أما الولد الأكبر فأفصح عن مشكلات بينه وبين زوجته الفرنسية الأصل، ويستعدون للانفصال، وتركت له الأبناء، فهو لا يستطيع التخلِّي عنهم ولا يريد أن يكرر مأساة والده، على أن يدعوها خلال إجازة الصيف لتقضي مع الأبناء بعض الأسابيع.

لم يكن الكرسي يتوقع أن تلك القرارات ستجلب له التعاسة والشقاء، وستلقي به في نهاية المطاف خارج البيت الذي أحبه وأقام فيه لسنوات طويلة. لم ينل من الأبناء والأحفاد، هؤلاء الدخلاء الذين أتوا من الخارج يتكلمون بلغة لا يفهمها ولا تبالي أمهاتهم وآباؤهم بقفزهم على الكرسي وجره والتأرجح عليه، نفس مشاعر الحب التي لقيها من الرجل الهادئ والسيدة الجميلة. مرت السنوات والكرسي كل يوم في تدهور مستمر، يضاهي تدهور صحة الرجل الهادئ الذي بات يمشي ببطء شديد حتى يصل للكرسي يستعين به متفاديًا السقوط ولا يعلم من يستعين بالآخر، الكرسي الذي فقد اتزانه بسبب خلخلة أحد أرجله أم هو الرجل الذي لا تستطيع قدماه حمله لمسافة لا تكاد تكون طويلة هي تلك المسافة من حجرة نومه إلى الكرسي بجانب المدفأة.

كبَر الأحفاد ولم يعد يروق لهم البيت، وباتت ألسنتهم لا تنطق إلا بالانتقاد لكل ركن به، قالوا إنه أصبح قديمًا وكل شيء به يحتاج للتجديد، فدهان الجدران باهتًا والباركيه الذي يغطي الأرض قديم مليء بالخدوش والحفر، لم تعجبهم تلك النقوش النباتية على جدران الحمامات والمطبخ فلم تعد تواكب الموضة، يشير الأحفاد بضيق دائم لأثاث البيت الكلاسيكي الثقيل الذي يزحم المكان، رأوا أن تلك القطع لا بُدَّ من استبدالها بقطع مودرن عملية، تكلموا عن ذلك الكرسي بشع المظهر، بعد أن اهترأ قماشه وظهرت بطانته وفقد لمعان مذهبه وبات يحرجهم أمام زملائهم ذوي المستوى العالي خريجي المدارس الدولية، أشاروا إلى أن الجلوس عليه أصبح غير مريح وذلك المسمار بأحد أرجله يمزق ملابسهم في كل مرة يجلسون عليه، كان الأحفاد في جدل دائم مع الجد الذي لا يبالي انتقاداتهم، ويتمسك بأثاث بيته العتيق فهم في نظره ما زالوا صغارًا لا يعرفون قيمة تلك القطع الثمينة، انتقاها بعناية هو وجدتهم عند امتلاكهما البيت، لم يقتنع الجد بقطع الأثاث المودرن ولم يوافق أبدًا على استبدال قطع بيته الكلاسيكية الثمينة بتلك القطع ذات الشكل السخيف الممسوخ، كما وصفها، فما إن يبدأ الأحفاد بالحديث عن التغيير حتى يقف الجد ويعلو صوته مدافعًا عن بيته مستاءً من تلك القطع المسماة بالمودرن، هاجمها وكأنها عدو يحاول احتلال بيته، نوه عن افتقادها للفن، فهي بلا نقوش ولا تعبر عن عراقة أو أصل. وأشار الجد بيده المرتعشة إلى الصالون الأنتيك المذهب، قائلًا إنه، رغم قدمه، ذو قيمة لا يدركها غير عين خبيرة، وصفهم بالمتأمركين فارغي العقول حديثي السن، ثم رفع عينيه ليمتد نظره للتابلوه الجوبلان، روميو وجوليت، المعلَّق على الجدار، حكى عن المزاد الذي أقيم بأحد القصور الفخمة في باريس، حين قام بشراء التابلوه عندما كان هو وجدتهم في

باريس في أول زواجهم، وتلك المنضدة المستديرة المنحوت ساقها على شكل طفلين بجناحين يحملان أقواسًا وأسهمًا يمثلان كيوبيد إله الحب عند الرومان، أشار إلى البومبيه المزين بالنحاس ومن فوقه قطعة الرخام عليها يوضع براويز راقية بها صور لأبنائه وللسيدة الجميلة، مرسوم على درفة بألوان الزيت التي لم يتغير لونها حتى الآن، تنظر للرسومات لتجد الطبيعة؛ حدائق فرنسا الغنَّاء ومجموعة من العازفات بشكل بديع وألوان زاهية للشجر والسماء تتوه فيها بعينيك وتنسى الدنيا والأيام، والكونسول بجانب العامود المنحوت على شكل طاووس، كان العجوز يحكي بصوته المرتجف فتتناثر الكلمات منه في الهواء نغمات حزينة، كل قطعة بالبيت لها حكاية وتاريخ لدى العجوز ولم يكن لها أي قيمة لدى الأحفاد، راحوا يقلبون أعينهم ويعوجون شفاههم في تململ من كلام الجد الذي حاول أن يخبئ انفعاله لكنه بدا جليًّا في صوته المتهدج ودمعة عينيه، لم ينس أن يتكلم عن الكرسي وكيف التقاه في المتجر بوسط البلد، وفرحة أبنائه به عند شرائه، نوه أنه كان اختيار جدتهم. انتهى النقاش بأنْ حسم الآباء الجدل بين الجد والأحفاد، اتفقوا على إزاحة الكرسي بجانب أحد الأركان بعيدًا عن الأنظار.

لم يتخيل الكرسي أن يأتي عليه يومٌ يكون فيه أفضل الحال هو إبعاده عن المشهد. تذكر يومًا كان فيه محلَّ فخرٍ لأهل البيت قبل عدة سنوات، كان الضيوف يفضلون الجلوس عليه للراحة والاستمتاع بمنظر النيل، ولكونه قريبًا من المدفأة في الشتاء. لم يغب عن ذاكرته مشاهد الصالونات الأدبية التي كان يقيمها الرجل الهادئ في بيته. تعقد تلك الأمسيات في الصالون المرافق للمكتبة، حيث يتصدر الكرسي المشهد، ويجلس عليه صاحب البيت ليدير من عليه صالونه الأدبي. اشتاق الكرسي

ليومٍ شهد فيه الكثير من المثقفين والقراء وأصحاب الرأي والفكر وصانعي القرار في البلد.

صارت غصة بداخله عندما هاجمت ذاكرته صور ذلك اليوم، يوم أن جاء هؤلاء الدخلاء من الخارج، أحفاد الرجل وأصدقاؤهم. كان للرجل حفيدة تشبه جدتها، عينيها الزرقاوين، وأنفها الدقيق، وشعرها الذهبي، إلا أنه لم يكن مرفوعًا لأعلى كما كانت تصنعه جدتها، بل كان متروكًا يتهدل على كتفيها بسريالية متعرجة، وخصلاته تحاكي الطبيعة بتمردها.

ظل الكرسي يشعر بالألم كلما مرت بذاكرته مشاهد تلك الأيام السوداء التي كان يأتي فيها هؤلاء الدخلاء، دائمًا ما يُزعجون الجد العجوز بصوتهم العالي وضحكاتهم المستفزة، وكلامهم عن التغيير والتطوير، والإشارة إلى أن العالم بالخارج أصبح أكثر مرونة من هذا العالم القديم الذي يعيشون فيه، وما زال متمسكًا بتقاليد عتيقة لا تواكب العصر. طالما انزعج الجد من أشكالهم واستعمالهم العنيف لأثاث بيته وكأنهم يتعمدون تدميره. كان يتعجب من شكل شعورهم التي لا تُصفف أبدًا، وكأنهم في عصور الإنسان البدائي، حيث لم يتعرف الإنسان بعد على المشط لتصفيف الشعر أو المقص لتهذيبه.

وكان الكرسي لا يزال يُفرغ غيظه، حيث يقوم ذلك المسمار في إحدى أرجله بتمزيق سروال كل من يجلس عليه. لكنهم لا يبالون؛ فالسروال ممزق في الأصل، وتلك هي الموضة.

ظل الجد متمسكًا بأثاث بيته الدافئ العريق، حتى جاءت تلك الحادثة التي حسمت الجدل. عندما حاولت الفتاة زرقاء العينين، التي تشبه جدتها، الجلوس على

الكرسي، كُسِرت إحدى أرجله وسقطت الفتاة، مما أدى إلى جرح ساقها بشدة بسبب مسمار بارز. نزفت كثيرًا، وقرر الأبناء على الفور التخلص من الكرسي فقد أصبح غير آمن وبشع المنظر. لم يستطع الجد الدفاع عنه بعد تلك الواقعة المؤلمة، وصمت وهو يشاهد الأحفاد يرفعونه ويتجهون به خارج البيت ليلقوه على قارعة الطريق.لم يكن ذلك أول تخلٍّ من أحباء الكرسي، تخلَّت عنه السيدة الجميلة قبل ذلك بسنوات حينما حملت حقيبتها الكبيرة، وذهبت بالأبناء خارج البيت ولم تُلق حتى نظرة وداع أخيرة على الكرسي، تركته يواجه مصيره بمفرده فأصبح عرضة لأمزجة الدخلاء وتغيير الأذواق وتقلبات الأيام، إلى أن صار به الحال هنا على قارعة الطريق، يحمل معه ذكريات البيت العتيق، ويشتاق مكانه الدافئ أمام المدفأة، بجانب النافذة المطلة على النيل.

***

تم الاستلام وشكرًا

ما زلت أتذكر ذلك اليوم عندما أرسلوا لي لنَيل جائزة أدبية على رائعتي (الدخلاء)، جلست في قاعة تشبه قاعة السينما من جانبي زوجي، امتلأت القاعة بالحضور، منظمو الحفل يرتدون الملابس الرسمية، أمسك أحدهم بالميكروفون ينادي أسماء المرشحين للجوائز، يسلمهم الجائزة واحدة تلو الأخرى، كنت أنتظر دوري، شعرت بالبرودة فالتكييف عالٍ بعض الشيء، وأخيرًا سمعت اسمي، انتفضت لاستلم جائزتي، تصفيق بارد من الحضور كبرودة التكييف بالمكان، اتجهت للمسرح قاصدة السلم المؤدي إليه بالجانب البعيد، صعدت درجاته، الدرجة الأولى ثم الثانية فالثالثة، تابعت الصعود، كدت أن أنكبَّ على وجهي، فقد تعرقلت فردة حذائي في درجة السلم المكسورة وأبت أن تصعد معي، توقفت للحظات أحاول جذبه بهدوء دون أن يلحظ أحد، حاولت الصعود، ما زال اسمي يتردد بميكروفون الحفل، عملت على جذبه مرة أخرى إلا أن شيئًا ما أمسك بالكعب رحت أجذبه بقوة هذه المرة دون نتيجة مرضية، كررت المحاولة مرات عدة متعاقبة توترت وحملت نفسي على الإسراع وتكرار مرات المحاولة وما زال اسمى يُنادِي به المنظمُ بميكروفون الحفل، حالة من الصمت انتابت الحضور ينتظرون صعودي للمسرح، انحنيت قليلًا للإمساك بالحذاء ونزعه عن طريق خلخلة كعبه من الثقب الموجود بدرجة السلم، لم تفلح المحاولة، ازداد الصمت في القاعة وسكت الميكروفون عن مناداة اسمي، رفعت رأسي لأرى الجميع في تململ ينظرون إليَّ في تلك اللحظة قررت أخذ الخطوة، خلعت قدمي من الحذاء ودنوت من الأرض، امسكت به انزعه من درجة السلم اللعينة، فكيف أصعد للمسرح بدونه؟ بدأت في

التعرق وشعرت بسخونة المكان رغم وجود التكييف، بدأ حجابي في التحرر، ورأيت من بعيد أحدهم يسرع ناحيتي لمساعدتي انتبهت له فإذ هو زوجي يأمرني الابتعاد ليتصرف هو لكني رفضت، فكان علي أن أنجح في نزع حذائي بنفسي، نفد صبر الحضور، وبدأت القاعة تعج بالكلمات ارتفعت الأصوات وأفرج البعض عمَّا بداخله من استياء، وقف منظمو الحفل يراقبون الوضع أعينهم ترمقني وتتمتم شفاههم بتأفف وعتاب، سمعت صوتًا من بعيد يتساءل عمَّا يدور ولماذا توقف المنظمون عن تسليم الجوائز؟ اقترح آخر المناداة على الاسم الذي يعقبني حتى أنتهي من مشكلتي، رأيت زوجي منهمكاً في التفكير بطريقة ينزع بها الحذاء، و طلب مفكًّا لتوسعة ثقب السلم المحشور به الكعب، سارع أحدهم بتلبية المطلب وآخر حاول سكب الماء على الثقب وثالث اقترح كسر الكعب، كان الجميع يراقب ما يحدث عن كثب، بادرت بفك أزرار كُم قميصي الأنيق، اشتريته خصيصًا للحفل، شمرته لأعلى ومسحت عرق وجهي بيدي ليتزحزح حجابي وتطل بعض شعرات مقدمة رأسي فتلتصق بعرق جبيني، ساح مكياجي وفقدت هندامي، وحين كان زوجي ينهي توسعت الثقب بمفك في يده، دنوت من الأرض أمسكت حذائي بكلتا يدي أنزعه متحدية الدرج، متفادية النظر بعيون من حولي، لم أشعر إلا وجسدي يطير للوراء قبل أن يهوى ويرتطم بالأرض. نظرت بيدي حذائي فتنهدت وعلا وجهي الارتياح، نهضت وعلى الفور صعدت المسرح، نظرت الحضور رأيتهم يتطلعون إليَّ باهتمام، تلفتُّ حولي لأرى منظمي الحفل يحيطون بي وصاحب الميكروفون ينادي اسمي لاستلام الجائزة، رفعت يدي التي تحمل الحذاء في الهواء، صفق الجميع بحرارة تصفيقًا حادًّا، سارع المنظمون بالتقاط الصور معي وفلاش الكاميرات يزعج عينيَّ فأغمضهما، استمر التصفيق حتى خفتت

إضاءة المسرح وابتعد الصوت شيئًا فشيئًا، فتحت عينيَّ لأجدنني مازلت في فراشي، مدت يدي التقط جوَّلي، تفقدت الإيميل الخاص بالمسابقة ورأيت قصتي التي أرسلتها إليهم والرد عليها بتاريخ شهرٍ مضى أقرؤه يوميًّا يقول:

"تم الاستلام وشكرًا".

***

سيدنا

كانت القرية في ذلك اليوم هادئة إلا من أصوات إطارات سيارات الضيوف المدعوّين من القرى المجاورة لحضور المأدبة السنوية التي تقام في نفس الميعاد من كل عام؛ وليمة (سيدنا) المُقامة في دار عمدة القرية على شرف أحد شيوخ الصوفية، له كلمة مسموعة ومقام رفيع عند الكثير من أعيان المنطقة.

دخل الناس أفواجًا من القرية والقرى المجاورة بيت العمدة منتظرين قدوم سيدنا وكان الطباخ قد قارب على الانتهاء من تحضير الطعام، أرسل إليه العمدة قبل الوليمة بيومين، جاء ومساعدوه يعينه في ذلك اليوم نسوة الدار ونساء العائلة من أحباء زوجة العمدة، يجاملونها كل عام في نفس الميعاد.

دخلت سيارة سيدنا حوش العمدة ومن ورائها حافلات استقلها أتباعه من القرى والبلدان المجاورة، وفي مشهد يكاد لا يُمحى من الأذهان ترى الناس سراعًا يتسابقون لفتح باب سيارة سيدنا الملاكي.

ترجل سيدنا من سيارته ظهر في قمة هيبته، ارتدي جلبابًا أبيض اللون ومن فوقه عباءة صيفية خفيفة بُنية اللون بحزٍّ مذهب من الأمام والأكمام التي لا تصل إلى الكف بل يظهر منها أسورة جلبابه الأبيض مغلقة بزر بإحكام. تقدم العمدة وأبناؤه من الذكور وأهل الدَّوَّار من الرجال وشيوخ القرية وأكابرها ينحنون لتقبيل يد سيدنا الشريفة، بكي منهم من لم يستطع السيطرة على مشاعره عند رؤيته لسيدنا البركة كما يلقبونه. اتجه الجميع للصلاة، صعد سيدنا المنبر يلقي خطبة الجمعة بالجامع الكبير بالقرية، لم تخلُ الخطبة من توصيات سيدنا بالطاعة لولي الأمر

وإخماد نار الفتنة والبعد عن الشبهات إذا اختلط الحق بالباطل. أقام سيدنا الصلاة وفور الانتهاء بدأ الاحتفال واتجه الجميع لدوار العمدة.

أعد الطباخ المائدة الكبيرة الممتلئة بالطعام لسيدنا وأتباعه، وضع عليها كلُّ ما لذَّ وطاب من محاشٍ ولحوم، سيطر على المائدة الطيور بجميع أنواعها من بط وحمام وفراخ وأيضًا الأسماك التي لم ينس العمدة تقديمها على المائدة الخاصة بالشيخ، أغلق الباب على الشيخ وأتباعه، لم يكن يُسمح لباقي الضيوف بحضور تلك المأدبة الخاصة جدًّا، بل يتم تحضير مأدبة أخرى لهم على غرار تلك التي أُعدَّت لسيدنا، أما الغلابة من أهل القرية والقرى المجاورة فمنهم من يأخذ غذاءه في رغيف به قطعة من اللحم والبعض يستحي المجيء في ذلك اليوم المشهود.

لم تَسِر الأمور في ذلك اليوم كما تمناها العمدة، فمن حظه أن تواجد وسط الحضور شخصٌ لم يكن على دراية كاملة بتلك الطقوس، عندما جاء الداعي للطعام لدعوة الشيخ وأتباعه للداخل قام الرجل من ضمن الحضور، توجه معهم للمأدبة الخاصة بهم، مما أثار استياء أتباع الشيخ وطالبوا بإخراجه، الأمر الذي أوقع العمدة في حرج شديد فماذا عساه أن يقول للرجل؟ لم يكن على العمدة إلَّا أن تجاهل ذلك المطلب المحرج له، فخرج وأغلق الباب من ورائه.

أقبل سيدنا وأتباعه على الطعام بشهية مفتوحة، يتناولون الحمام المحمَّر المُغطاة أرجله بورق السلوفان وصدور البط والفتَّة والمحاشي، يناولون بعضهم البعض، والرجل الغريب جالس، لا يعرف ما الداعي لتلك النظرات التي تُلقى عليه شزرًا من أتباع الشيخ، وشعر بأنه غير مرغوب به وسطهم.

امتلأت ساحة الدوار بالضيوف، ينتظرون دورهم في كرم الضيافة، يدعوا الداعي البعض، فيأكلون حتى تمتلئ البطون ويسارع صِبية الطباخ برفع الأطباق الفارغة وملئها ثانية، وتحضير مائدة أخرى لفوج آخر يدخل في الحال.

لا يخلو اليوم من الأطفال، يلعبون ويختبئون وراء السيارات التي ملأت مدخل القرية والساحة، وينتظر الفقراء لنيل نصيبهم من رغيف ملئ باللحم. وفي تلك الأجواء سارع الابن الأوسط للعمدة الى النسوة بالدار حاملًا قطعة من اللحم، ما كاد أن رفعها بيده ليخبرهم بأنها قطعة باقية من طعام سيدنا، حتى تسابق النسوة لنيل قضمة من تلك القطعة المبروكة.

لم ينتهِ اليوم إلا بمباركة سيدنا لأهل البيت من النساء المتواجدات من زوجة العمدة وبناته وأخواته البنات اللاتي سارعن لتقبيل يده وإبداء كلمات الترحيب، بارك سيدنا زوجة الابن الجديدة بالبيت وليتم كراماته أخبرها بأنها تحمل مولودًا بأحشائها ، وتنبأ لها بولد، اختار له اسمه الذي هو على اسم ابنه، هلل العمدة وزوجته للخبر الجديد متباهيَيْن بالرجل المبروك الذي علم بشأن الحمل قبل أن تظهر علاماته وقبل أن يعرف أيٌّ منهم شيئًا عنه، حثوا الزوجة على ضرورة أن تسمي المولود الاسم الذي اختاره له الشيخ وإلا أصابتها اللعنات؛ أما زوجة الابن، فلم تغترَّ بما قاله الشيخ ولم يَرُق لها الاسم الذي اختاره لمولودها، وكشفت للجميع أنها علمت بشأن الحمل من قبلها بأسبوع ولم تُخبر به أحدًا غير زوجها، وكانت تنتظر أن يثبت حملها حتى تعلنه للجميع.

لم يفوت العمدة التبرك بسيدنا، أخذه من يده ليبارك المبنى الجديد لولده الثاني والذي هو على وشك الزواج، ثم اتجه الجميع إلى المَضْيَفَة، ذلك المبنى بفناء دار

العمدة، تُقام فيه قضايا فضِّ النزاعات بين أهل القرية بعضهم البعض. توسط سيدنا المجلس على يمينه العمدة وبعض أكابر البلد وشيوخها وبعض من أتباع سيدنا، أما الباقون ينتظرون خارج المضيفة على دكك خشبية موجودة بالفناء، يتناولون التحلية بعد الغداء، تطوف عليهم صواني الفاكهة يحملها الخَفَر، يتقدم العمدة لتشكيل طبق مخصوص لسيدنا، تُوضع الصواني على طاولة بوسط المضيفة يلحقها صواني المهلبية.

بدأ الشيخ حديثه بالإشارة إلى بعض الأحداث التي تدور بالبلد؛ تكلم عن نسب ذلك المرشح الذي هو من الأشراف، وبالرغم مما عُرف عنه من شربه للخمر، إلَّا أن الشيخ تغاضى عن ذلك ولم يذكره، وزكَّاه عن منافسه التابع للجماعة الإسلامية ودعا أتباعه لتزكيته وانتخابه.

وفي غمرة الحديث، انتبه الحضور لأصوات وضوضاء بفناء الدوار، وأربعة من الشباب القوا بصندوق وسط الفناء، طالبوا الشيخ البركة بالذهاب معهم للمسجد ليصلي على مُتوفَّاهم بداخل الصندوق صلاة الجنازة، اقترب سيدنا من الصندوق ومن خلفه العمدة وشيخ البلد و أكابر القرية، وضع سيدنا يده اليمنى على الصندوق، وانتظر قليلًا حتى رفعها، أمرهم بحمل الصندوق، ثم أشار عليهم الذهاب به لجامع القرية للصلاة على المُتوفَّى، وكان قد حان أذان العصر، وبالفعل حمل الشباب الصندوق، توجهوا به إلى المسجد معهم الرجال يحيطون بسيدنا، من ورائهم أهل القرية والأتباع المتواجدون بساحة الدوار، اتجه الجميع قبل الصلاة، للوضوء بدورة مياه الجامع.

اصطف الجميع خلف الشيخ في حين وضع الشباب الصندوق في أحد الأركان جانبًا لحين الانتهاء من صلاة الفرض، أقام سيدنا صلاة العصر وعند الانتهاء أمر الشباب بحمل الصندوق ووضعه أمامه، انصاعوا للأمر، كان يستعد ليقيم صلاة الجنازة حين سمع ضحكات، التفت إلى الشباب من خلفه وسألهم عن سبب الضحك، رد أحد الشباب وقال في استنكار:

ـ أي جنازة؟ من بالصندوق هو أحد أصدقائنا، اتفقنا معه قبل أن نجيئك حاملينه بالصندوق، لكشفك أمام رجال القرية كلها، فوضعنا صديقنا هنا بداخل الصندوق وهو حيٌّ، ولم تتمكن أنت من معرفة ذلك.

جاء رد الشيخ حازم جازم وقال:

ـ لكن صديقكم هذا مات بالفعل، وهو الآن في ذمة الله وعلينا أن نصلي عليه صلاة الجنازة ونشيعه لمثواه الأخير.

نظر الشباب لبعض كاتمين الضحك وقال أحدهم:

ـ ما دليلك على أن صديقنا بالصندوق ميت؟ لقد قلنا لك أننا وضعناه حيًّا، بل دخل هو بنفسه الصندوق وفرد جسده بداخله وأغلقناه نحن عليه ثم حملناه إلى فناء الدوار لنثبت لأهل القرية أنك دجَّال ليس لك أي كرامات ولا يمكنك كشف الغيب، فلا يعلمه إلا الله.

تقدم الشباب الأربعة أمام الصندوق وطرق أحدهم عليه، لم يسمع أي منهم أيَّ حركة بداخله فتطوع آخر بمناداة الصديق بداخل الصندوق ولم يأته جواب. تبادل الشباب النظرات الحائرة وبدأ القلق يحوم بعيونهم والريبة تدب في صدورهم،

تجمَّع الرجال ممن هم داخل الجامع حولهم يتابعون ما يحدث منتظرين براءة سيدنا دون أن يشغلهم أن يكون من بداخل الصندوق حيًا.

مرت لحظات من الصمت لا تخلو من نظرات الشك بعيون مفتوحة معلقة لا تغمض ولا ترمش، تأهب الجميع لمشاهدة لحظة فتح الصندوق.

تقدم الشباب الأربعة لرفع غطاء الصندوق، لاحظ الجميع أنه محكم الغلق، وأخيرًا رفع الغطاء فشهق الجميع شهقة عالية حين رأوا الصديق بداخل الصندوق بلا حراك عيناه مفتوحة نظرتها ثابتة ويسيل الدم من فمه.

اندهش الأصدقاء وهالهم ما رأوا فصديقهم الذي دخل الصندوق بنفسه هو الآن ميت كما قال الشيخ، علت الأصوات بالتكبير والتهليل وازداد إيمانهم بالشيخ المبروك صاحب الكرامات الذي علِم بوفاة الشاب بداخل الصندوق.

بيد مرتعشة سَبَّل أحد الشباب الأربعة عين الصديق وبصوت مرتجف تمتم بعبارات الحزن والأسى. أمر العمدة باستدعاء أهل الشاب المُتوفَّى وكان العويل والصراخ خارج المسجد دليلًا على حضورهم ووصول خبر ابنهم اليهم.

دخل أقارب الشاب من الرجال المسجد واندهش العمدة عند رؤيته سيد سائق باجور الحرث يتقدمهم، لحقه سيد قبل أن يسأله العمدة عن علاقته بمن بالصندوق، قال وهو يضرب رأسه بكفيه:

ـ ابني يا عمدة ابني سلَّام يا عمدة، عملها من غير ما يقولي ماكنتش اعرف، ولاد الأبلسة ضحكوا عليه.

لزم الذهول وجه العمدة والحضور، ألقى سيد نظرة على ولده سلَّام، الوجه باهت، تحسس الجسد بارد كالثلج، وعلى الرغم من علامات الموت المؤكدة، طالب باستدعاء الطبيب الذي أكد أن الشاب توفاه الله بالفعل.

حمل أقارب الشاب المتوفى الصندوق وخرجوا به من الجامع استعدادًا لتغسيله ودفنه مع عويل وصرخات النساء خارج الجامع وخرج من ورائهم سيدنا يحيط به العمدة وشيخ البلد وأكابرها ومن حولهم أهل البلدة يتبارون لتقبيل يد سيدنا مع التهليل والتكبير. كان الشباب الأربعة آخر من خرجوا من باب الجامع راحوا يضربون كفًّا بكف وعلت وجوههم علامات الحيرة والدهشة.

اتجه الحشد إلى بيت العمدة جلسوا بمضيفة الدوار توسط المجلس الشيخ البركة، دار الحديث ثانية عما يدور بالبلد من قضايا وابدى الشيخ رؤيته الثاقبة على الأحداث، تنبأ بالمستقبل وتكلم عن تلك الجماعة الدينية وخطورتها على البلاد، حذر من وصول مرشحهم للحكم ومدح في المرشح المنافس نوه ثانية لنسبه الشريف وذكاه على منافسه ودعاهم لانتخابه.

علم الشيخ في قرارة نفسه أنه ليس عليه لأن يبذل مجهودًا كبيرًا في دعواه لمرشحه، فقد كان كلامه لمريديه فرضًا عليهم السمع والطاعة وإلا أصابتهم اللعنة أينما ذهبوا، وبات لأهل القرية أمرًا لا بُدَّ من تنفيذه، خاصة بعد حادثة الشاب بداخل الصندوق ومقدرته علي كشف حقيقة موته.

دخل الخفر يحملون صواني البسبوسة، تبعها الشاي والقهوة، توسط سيدنا المجلس وتكلم بلباقة فانصت له الجميع في اهتمام وانبهار بحديثه وعلمه الذي حباه الله به عن سائر البشر. وفي غمرة الحديث اخترق زجاجَ شبَّاك المضيفة حجرٌ أصاب

جبهة الشيخ، نزف الشيخ بشدة من مقدمة رأسه وسارع العمدة وأكابر القرية باستدعاء الطبيب في حين كان الغفر في مهمة صعبة لمحاولة الإمساك بالصبية الذين ألقوا الحجارة بالشبَّاك لتصيب جبهة الشيخ وتسليمهم للعمدة واستدعاء أهاليهم لتأنيبهم على فعلة أبنائهم النكراء. حمل أحد الصبية على عاتقه مهمة الدفاع عن نفسه وأصدقائه، قال أنهم ليسوا من ألقوا بالحجارة التي أصابت الشيخ، من فعل ذلك هو إسماعيل كل ما فعلوه أنهم بدأوا بمضايقته حتى أمسك بالحجارة وشرع في إلقائها عليهم لكنهم ابتعدوا مسرعين عندما ألقاها فأصابت النافذة وتهشم الزجاج وأُصيبت جبهة الشيخ.

ارتبك العمدة فلن يستطيع معاقبة إسماعيل، كيف يعاقبه وهو بلا عقل؟ وأبوه لاحول له ولا قوة، فكر ماذا عليه أن يفعل؟ ثم أمر الغفر بترك الصبية بعد أن توعَّدهم إن رآهم ثانية يلعبون بجانب الدُوار، وذهب مسرعًا يطمئن على الشيخ حين كان الطبيب يضمد له جرحه.

جلس سيدنا في مكانه بالمضيفة، يتوسط الحضور، جلبابه الأبيض ملطَّخ بالدماء، وعباءته البنية الصيفية فوق كتفيه، وجبهته مغطاة بالشاش والبلستر الطبي.

حاول العمدة تحسين الموقف، بكلمات رقيقة لينة يتبعها التوعد بمعاقبة من فعل تلك الفعلة، راح يرحب بالشيخ، يبجله تارة ويبدي أسفه تارة أخرى، مرَّ الوقت وسمع العمدة ومن بالمضيفة أصواتًا تتعالى بالخارج، ليفاجئوا بجمع من أهالي القرية من عائلتين بينهما نسب، يستنجدون بالشيخ وقد عمقت حادثة الشاب المتوفى بداخل الصندوق اعتقادهم فيه، خرج لهم العمدة يحاول تهدئتهم، وراح يستسمح الشيخ لمقابلتهم، وافق الشيخ وطالبهم بترشيح اثنين منهم لمحادثته وإبداء مطالبهم.

تقدم اثنان من الرجال، واحد من كل عائلة، دخلوا المضيفة بعد ان خرج الجميع، جلسوا بمقابل بعضهم يتوسطهم الشيخ، أوضحوا بأن بينهما نسبًا، حكى أبو العروس بأن ابنته تزوجت منذ أسبوع بشقيق الجالس هذا، وأشار على الطرف الآخر، أردف معلناً انها مازالت بكرًا حتى هذه اللحظة. لحقه شقيق العريس الجالس بمقابلته، حاول أن يمحو العار عن أخيه بأن علق السبب على السحر، قال إن أخاه مربوط بعمل اسود سفلي قام به صديق له حاقد عليه، وأنه زينة شباب القرية عاد بعد سنوات قضاها بالخليج، يمتلك تسعة قراريط من أجود أراضي القرية، ودار ملك، أما الصديق فلا حول له ولا قوة، ليس له ملك ولا ورث.

أنصت الشيخ جيدًا لحديث الطرفين، سكت لبرهة ثم طلب أن ينفرد بالعريس.

خرج الرجلان ودخل العريس، كان مطأطأ الرأس، بدا عليه الخجل والحزن، وشاهده ضعيفًا هزيلًا، تكلم معه الشيخ لبعض الوقت، ثم ربت على كتفه وخرجا معًا للأهل، وأعطاه أمامهم حِجابًا وأمره بوضعه حول رقبته ولا يخلعه أبدًا، نظر للأهالي وصرح بأن مشكلة ابنهم قد انتهت بالفعل، وأمرهم بالانصراف.

أذن المؤذن لصلاة المغرب، تأهب الشيخ والعمدة وشيوخ البلد وأكابرها، للذهاب لجامع القرية للصلاة، ومن ورائهم الجموع الغفيرة من الرجال، أقام الشيخ الصلاة، وبعد الانتهاء، توجهوا جميعًا لمضيفة العمدة، وهناك فوجئوا بحشد كبير، نساء ورجال، يملؤون الشارع الموصل لدوار العمدة ويغلقون مدخل البلد. أحاط العمدة وشيخ البلد وأكابر القرية بسيدنا من كل اتجاه يحمونه من هؤلاء الهمج الغوغائيين كما أطلقوا عليهم، دخلوا به ساحة الدوار بعد عناء، شاهدوا الفوضى بداخله تعم الدوار كخارجه، أناس من أعمار مختلفة، رجال ونساء يلتفون حول

نعش من فوقه شخص في كفنه، أمرهم العمدة بالابتعاد بمتوفاهم عن الدوار وكفى ما حدث من أول اليوم، رفض الأهالي إلَّا أن يعرضوا الأمر على سيدنا، وطلبوا منه النظر في أمرهم ومساعدتهم، تعجب الشيخ! ففي أي شيء سوف يساعدهم؟

انهزم العمدة والغفر أمام تعنت الأهالي، فلم تفلح مقاومتهم الجادة لهم في إبعادهم عن الدوار، أمرهم الشيخ أن يقصوا عليه حكاياتهم.

حكى أحد الشباب وهو ابن المتوفى، قال بلهجته الريفية المطاطة:

ـ اللي في الكفن أبويا، كان خفير في دوار العمدة، مات امبارح بالليل وماعرفناش مات ازاي، جه اتنين من بلد جارنا امبارح العصرية، قالوله عايزينك معانا في شغل خاص في بلد بعيد عن الناحية، راح معاهم برغبته وكان في كامل صحته، وقبل نص الليل بساعة جانا اتصال من واحد من الرجلين قال إن أبويا اتعرض لحادث مات فيه، وأكد علي العجلة في دفنه لأن جسده اتقطع في الحادث، جرينا على المستشفى ولما دخلنا، لقناه لوحده في كفنه، والرجلين اللي كانوا معاه اختفوا زي الملح في الأكل ومانعرفش عنهم حاجة لحد دلوقت. جينا بيه وصلينا عليه في جامع القرية، روحنا ندفنه قبل الفجر بنص ساعة، ولما كشفلنا التربي الغطا عشان نريحه في قبره، قال إن أبانا ما ماتش في حادث؛ الكفن نظيف خالي من أي بقعٍ دم. ولما كشف لنا وجهه لاحظنا عليه علامات ضرب وخدوش ماكانتش موجودة قبل كده، رجعنا بالجثمان للبيت، واستدعينا الحكيم اللي أكَّد كلام التربي، ولما روحنا للعمدة عشان يشوفلنا حل ويبلغ النيابة تفتْح تحقيق في الحادث وتشوفلنا الرجلين اللي كانوا معاه، لقينا العمدة مالوش مزاج وأمرنا نتكتم على الموضوع لحد ما يمر اليوم وتعدي عزومة الشيخ على خير.

صمت الشاب قليلًا ليرى مردود كلامه على الشيخ، نظر إلى جثمان أبيه الملقى بكفنه على الأرض، وقف الجميع مشدوها بما سمعوا وراحت أعينهم تتبدل بين العمدة والشيخ ينتظرون كلمة مشفية وحلاً مقبولًا لديهم. تشحتف الشاب وارتجف، بكى وأردف:

ـ من طلعة النهار وأبونا في البيت ماردناش ندفنه إلا بعد ما تيجي النيابة تثبت الحالة، الجو صيف وحر زي مانت شايف، شغلنا كل مراوح البيت وصوبناها على الجثمان، أبونا ميت من امبارح بالليل يعني قرب على يوم كامل، الجثمان في حالة سيئة واحنا في حالة غليان. سمعنا بكراماتك، الناس بتحكي فيها من صبحية ربنا، أشار علينا البعض نجيلك هنا بجثة أبينا نعرض الأمر عليك وتساعدنا في معرفة القاتل وتقولنا مكان اختفاء الرجلين اللي كانوا معاه فناخد بطارنا منه.

تعجب الشيخ من الحكاية وتعجب أكثر من المطلب الغريب، كيف له معرفة قاتل أبيهم ومكان اختفاء الرجلين!

حاول إقناعهم بأنه ليس بموسى فلن يأمرهم بأن يأتوه ببقرة صفراء فاقع لونها كما أن الأمر هذا لا بُدَّ أن يُترك للنيابة والتحقيقات وعليهم أن يأخذوا جثة أبيهم ويعودوا بها إلى البيت وعلى العمدة إبلاغ النيابة بالأمر، أما هو فليس بيده شيء يفعله لهم.

لم يقتنع الأهالي وزاد الهرج والمرج، طالبوا الشيخ بكشف المستور وإظهار كراماته التي يسمعون بها منذ الصباح. وفي ذروة الفوضى، شاهد الجمع الشباب الأربعة أصدقاء الشاب الذي تُوفِّي بالصندوق بالظهيرة، يدخلون فناء الدوار، حاولوا إقناع الرجال أنهم خُدعوا بأسطورة الشيخ ذي الكرامات وأن ما حدث

لصديقهم هو محض صدفة. قالوا أن الطبيب أشار إلى أن الشاب مات مخنوقًا؛ فإحكام غلق الصندوق عليه وتركه لفترة طويلة بداخله أدَّى إلى نقص الأكسجين مما أدى إلى دخول الشاب في غيبوبة مات على إثرها بالاختناق لنفاد الأكسجين .

لم يصدق الأهالي كلام الشباب فردد أحد الأهالي:

ـ الشيخ واصل وقادر يعرف الغيب وعرف أن زميلكم مات من غير ما الطبيب يقول، ممكن يعرف لنا ازاي مات الخفير ومين تسبب في موته.

وأثناء الحديث سُمِع أصوات طبل وزمر من بعيد، أناس يرفعون منديلًا به بقعة دماء، يدخلون بها الدوار بالزغاريد والتهليل والتمجيد في الشيخ صاحب الكرامات، استطاع أن يفك العمل الذي كان يربط ابنهم. وعلى غُرَّة ركض واحد من أبناء الخفير المتوفى أحاط بذراعه رقبة الشيخ من الخلف وبيده الأخرى أشهر مِطواة، راح يهدد بذبحه إن لم يأتِ لهم باسم قاتل أبيهم ومكان الرجلين اللذين اصطحباه.

أحاط الذعر بالعمدة وشيوخ البلد وأكابرها، وبعد محاولات عدة لتخليص الشيخ من يد الشاب باءت كلها بالفشل، وقف أتباع الشيخ يتحسرون ويبكون يولولون ويندبون حالهم واللعنات التي سوف تصيبهم حال تم إيذاء شيخهم بينهم وهم مكتوفي الأيد.

لم يكن بيد الشيخ إلا أن يعترف لهم بحقيقته وينزع عن نفسه قدسيته وقدرته على معرفة الغيب ويفقد اعتقادهم به كي يخلص رقبته من سكين ذلك المجنون، كما وصفه. اعترف لهم بأنه ليس له أية كرامات، وأن كل ما حدث خلال اليوم هو

بمحض الصدفة كما قال الشباب الأربعة، سأله الشاب وهو يمسك بعنقه شاهرًا مطواه:

ـ والست مرات ابن العمدة اللي جالك علم بحملها قبل ما يظهر، والشاب اللي عرفت بموته وهو جوه الصندوق وكان دخله وهو بصحته، والعريس اللي قدرت تفك ربطته!

جاء رد الشيخ مدعم بتفسيرات تنم عن ذكائه وفطنته في معرفته بالأمور، أجاب:

ـ أما الزوجة فقد عرفتُ من زوجها الذي أشار لي بحملها دون أن يدري عندما سألني الدعاء له بأن يثبت الله أقدامه بالأرض، فطنت أن زوجته تحمل مولودًا في أحشائها ولكنه ما زال في مراحلة الأولى ولم يثبت بعد، وعندما رأيت الزوجة أخبرتها بأنها سوف تضع ولدًا وذلك على سبيل التخمين، فإن جاء ولدٌ أكون قد ربحتُ كل شيء وإن خلف ظني فلن أخسر كل شيء. أما الشاب المُتوفى بالصندوق، فعندما وضعت يدي على الصندوق، أحسسته باردًا لا حراك لا صوت ولا أنفاس، عرفت أن الصندوق إما خالٍ، أو من به متوفى بالفعل وعندما أمرت الشباب بحمله والتوجه به إلى المسجد، شاهدتهم يحملونه بصعوبة، فكان ثقيلًا، عرفت أن به شخص ميت بالفعل. أما ما هو بشأن العريس فعندما رأيته وجدته هزيلًا نحيلًا وشعرت بضعفه وخجله، ربتُ على كتفه وطمأنته أغمرته بكلمات الثقة بالنفس ثم أعطيته حبة مقوية كانت بسيالة جلبابي أحتفظ بها لمثل تلك الأمور، أشرت عليه أن يأكل وجبة دسمة ثم يختلي بزوجته، ونبَّهت عليه ألا يُعلم أحدًا أبدًا بشأن الحبة التي أعطيته إيَّاها وإلا بطل عملها وظل مربوطًا.

لم يقتنع الأهالي ولم يستجِب الشاب لتوسلات العمدة له بترك الشيخ فلم يجد وعده لهم بالتحقيق في الواقعة نفعًا ولم ينصاع الشاب لنداءات أكابر البلد وشيخها وولولة أتباعه الذين كانوا في حيرة من أمرهم، أينتظرون العمدة لينقذ شيخهم أم ينقضوا على الشاب ويخلصونه من بين يديه. وبين شدٍّ وجذب وتراشق بين اتباع الشيخ وأهل القتيل المتوهمين أن الشيخ يمنع عنهم كراماته ويتآمر مع العمدة عليهم، تطاولت الألسنة وراح الكل يشطح بفكره، قال أحد الأهالي مفسرًا ما حدث للخفير:

ـ أعتقد والله أعلم أن مقتل الخفير وراءه مصيبة كبيرة.

رد آخر زعم أنها تجارة في الآثار تورط فيها الخفير.

وأكد آخرون أنها لعنة الإتجار في المخدِّرات.

ازداد الهمس والغمز، وجهر أحدهم بأن الخفير كان يساعد هؤلاء الأشقياء المسجلين أصحاب السوابق في عبور السيارات والدراجات النارية المسروقة من الكمائن لما له من سلطة فهو محمي من الشرطة.

وقبل أن تنتهي التكهنات نشبت مشاجرة بين أهل البلد وأتباع الشيخ من جهة وأهل القتيل وأنصارهم والحشد الذي جاء معهم للدوار من جهة أخرى يدافعون عن قتيلهم وينفون ما قيل عنه، وأثناء التراشق وجد واحد من الأتباع طريقة لتخليص رقبة الشيخ من قبضة الشاب، وفي تلك اللحظات وكان الشاب متوترًا قلقًا انقضَّ الرجل على رأسه بلوح خشبي أرداه أرضًا وانفجرت من رأسه نفورة من الدماء.

عجل الأتباع بحمل الشيخ إلى سيارته الملاكي، وبين الجذب والشد مزقت عباءته البنية، وضعوه في المقعد الخلفي واحد من على يمينه وأخر على يساره وثالث

بجانب السائق الذي أدار السيارة وخرج بها مسرعًا من الدوار متجهًا للخروج من القرية وسط الحشد المتناحر.

أدرك أهل القتيل هروب الشيخ بالسيارة أقبلوا على جمع الحجارة من الأرض وإلقائها على الزجاج من الأمام والخلف حتى هُشم تمامًا، مما زاد من رعب السائق والرجال الثلاثة والشيخ. نهر الرجل بالمقعد الأمامي السائق صاح به يحثه على الإسراع في القيادة، ارتبك السائق وانطلق بالسيارة بسرعة متهورة، انحرف بها يمينًا ويسارًا تدهس البعض وتصيب البعض.

خرج الشيخ من القرية مذؤومًا مدحورًا تبعه أتباعه وظلت القرية في هياج الليلة بأكملها. جلس العمدة على درج دواره يضرب بكفيه على رأسه ويَعد الويلات واللعنات التي سوف تلحق به جراء ما حدث لسيدنا في بيته.

***

صورة العام

كانت الثامنة من مساء يوم الخميس آخر يوم بالسنة، حين أعددتُ كوبًا من الكاكاو الدافئ وجلستُ في شغف لقاء بعض الأقارب والأصدقاء والجيران، رتبتُ بيتي وأعددتُ تحية الضيافة وأكملت أناقتي وجلست أشرب الكاكاو أنظر للصور المعلقة على الجدران أشغل نفسي حتى مجيء ميعاد زيارتهم، وقعت عيني على صورة مرسومة بألوان الزيت لي ولزوجي في يوم زفافنا يقابلها صورة لأبنائي يرتدون ملابس تنكرية في حفل مدرسي على يمينها صورة لابنتي ترتدي زي التخرج من الجامعة، حاصلة على تقدير عالٍ، بجانبها صورة لابني وزوجته في إحدى البلاد الأوروبية، هناك في منتصف الجدار صورة كبيرة لآخر تجمع عائلي لنا في نفس الميعاد من السنة بها يضحك الجميع، أنا أجلس في المنتصف وبجانبي زوجي، على اليمين أختي وزوجها التي لا تستطيع النزول من بيتها الآن؛ فهي تعاني من التهابات في الأعصاب دائمًا، تقف بجانبها ابنتها الصغرى، كانت مازالت تدرس، هي الآن تعمل في شركة سياحية كبيرة تأخذ كل وقتها، على يساري ابنتي وبجانبها أحفادي وفي الخلف أخي وأبناؤه وزوجته كم هي جميلة، بجانبهم جارتي سحر جاءت تقضي اليوم معنا فقد كانت تعاني من الوحدة؛ تركها أبناؤها بعد أن هاجروا للخارج، بجانبها ابني الكبير وأطفاله وزوجته التي طُلقت منه بعد أن ترك لها أبناءه منها وسافر مع فتاة غربية، أما أنا فلم أعد أرى أحفادي لا بُدَّ أنهم كبروا الآن، وهذا في أقصى اليمين ماجد ابن جارتي مديحة رحمة الله عليها، شقتها مقابلة لشقتي، عيناه متورمتان من كثرة البكاء يومها جاء يشكي فعلة أخيه معه الذي استولى على الشقة هو وزوجته منذ أن تُوفِّيت والدتهما وطرده منها بعد أن

استبدل كالون الباب بآخر جديد ولم يسمح له بالدخول ثانية لكنه يأتي من الحين للآخر كلما اشتاق للمكان يدق الباب على أخيه ويأبى أن يفتح له فيلتفت ليدق علي بابي يجلس معي يحكى ويبكي وهو يستعيد ذكريات أمه معي، أما زوج ابنتي فلم يكن موجودًا بالصورة فهو لم يحضر يومها؛ يملُّ سريعًا ولا يحب التجمعات العائلية، كان ذلك منذ عشر سنوات قبل أن يأخذ ابنتي وأحفادي ويذهب لإحدى الدول العربية بعقد عمل مُغْرٍ.

أما أنا فلم أكن أشتكي من آلام بالعظام مثل الآن، ركبتي ما زالت تؤلمني منذ أن وقعت عليها في الحمام منذ شهور لم أجد لها حلًا ولم يستطع الأطباء مداواتها، لا بُدَّ أنها الشيخوخة فأنا أبلغ من العمر الآن العام الثالث والسبعين، لم أكن كذلك منذ عشر سنوات.

تأخر الوقت ومللت الانتظار ليلتها، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ولم يأتِ أحد، مرت ساعتان وأنا أنظر للصور شاردة في الذكريات، زوجي الحبيب كان يحب مشاهدة الأفلام القديمة معي في هذا الوقت قبل النوم، أحب مشاهدتها بالأبيض والأسود حزن كثيرًا عندما علم أنهم يقومون بتلوينها بأدوات التكنولوجيا الحديثة.

كنت مازلت أنتظر الجميع حين شعرت بالبرودة؛ الشتاء أصبح قارس لم يكن كذلك من قبل، عزمت على النهوض وتشغيل المدفأة اشتراها لي أخي هو الآن بمركز مرموق في شركته يأخذ كل وقته أعانه الله.

ولدقائق ذهبت في غفلة استيقظت منها على أصوات متداخلة وضوضاء بالمكان، استعدت اتزاني، فوجئت بالجميع وقد جاءوا، وجدتهم حولي ينظرون إليَّ في قلق، ابديت اندهاشي وتساءلت:

ـ ما هذا! ما كل هذا الجمع حولي؟ يبدو أنني نمت قليلًا، كيف تمكنتم من الدخول دون أن أفتح لكم! هل تركت الباب مفتوحًا؟ ما سبب كل هذا الدخان بالمكان؟

رأيتهم ينظرون لي وعيونهم يملؤها الأسي يرددون بأصوات متداخلة:

ـ جاءنا استدعاء عاجل، من حارس العقار والجيران، الذين شاهدوا ألسنة اللهب تخرج من نافذة شقتك، كسروا الباب ودخلوا ليجدوكِ في غيبوبة على وشك الاختناق جراء دخان الحريق الذي نشب نتيجة سقوط المدفأة على السجادة. من المرجح أن النوم قد غلبك وأنتِ جالسة على المقعد ولم تشعري بالحريق.

ـ لا بأس، يكفي وجودكم حولي الآن، استعدوا لأخذ صورة العام، أرجو منكم الالتفاف والنظر إلى الكاميرا.

كنت في قمة سعادتي أنظر للكاميرا وعلى وجهي ابتسامة عريضة والجميع حولي على وجوههم القلق والتعجب. يقول لي عقلي إنها كانت فكرة رائعة أتوق لتكرارها مرة ثانية، هل أقوم بتحضير كوبٍ من الكاكاو الدافئ لعلِّي أشعر بالسعادة التي شعرت بها حينها؟

***

التعويذة

ـ ألا أُونا ألا دُو ألا تِري، ألف مبروك أستاذ محمد، كل التهاني لك المتجر أصبح ملك لك.

كم أنا سعيد بتلك اللحظة، كيف كنت منذ سنوات مضت؟ لم أتخيل حينها أني سوف أكون مالكًا لمحل المأكولات الذي كنت أعمل به مجرد سائق دليفري. وعلى قدر سعادتي إلا أن هناك شيء ينتقص منها، أشعر أن عمري سرق مني دون أن أكوّن أسرة وأطفالًا كما كنت أتمنى، طالت سنوات غربتي وبدأ الشيب يطرق رأسي. لا بأس يكفي أني أمتلك هذا المكان الآن لا بُدَّ أنها هي تلك الكلمات التي كتبتها لي المرأة على ورقة خمسة الجنيهات، أتذكَّر كيف كانت مطوية، يومها ذهبت لتوصيل وجبة لها كانت قد طلبتها بالتليفون، وقفت على الباب أنتظر أن تأتيني بثمن الوجبة لأرحل، وقفت كثيرًا حتى مللت. خرجتْ هي وأعطتني ثمن الوجبة وبقشيش خمسة جنيهات مطوية بشكل غريب وضعتها في جيبي ولم أفتحها إلا في المساء بعدما انتهيت من عملي وذهبت للمنزل.

جلست أجمع ما حصلت عليه من بقشيش في ذلك اليوم، نظرت إلى الخمسة جنيهات، شغفتُ لفك طياتها ولم أجد بداخلها إلا بعض الكلمات مكتوبة عليها بخط عريض تقول:

" يومًا ما سوف تكون أنت صاحب المكان الذي تعمل به"

آه لو أجد تلك المرأة الآن، أتذكر أنها كانت قريبة من هنا لكني لا يمكنني تحديد العمارة على وجه الدقة، ولم أهتم وقتها فلم أصدق تلك الكلمات ولكني احتفظت

بالخمسة جنيهات في محفظتي لعل النبوءة تتحقق يومًا ما وها هي فعلًا قد تحققت. لن أستسلم سوف أبحث عن تلك المرأة صاحبة النبوءة حتى لو اضطرني الأمر لأنْ أدق أبواب كل شقق المنطقة.

كان ذلك منذ عدة سنوات عندما أشار لي مديري بالعلم بأن عقدي قد أوشك على الانتهاء وقد لا يجدد لي مرة أخرى، حينها كنت على مشارف الخمسين من العمر والمكان أصبح لا يصلح لمن هم مثلي، فالعمل في فندق مشهور يتطلب سنًا صغيرًا. أنهيت عملي وعدت إلى شقتي، نظرت في مرآتي، فرأيت بعض الشعيرات البيضاء التي تخللت جانب رأسي.

جلست أفكر ماذا بعد أن أفقد عملي؟ فليس لدي دخل يكفيني لبقية عمري، مدخراتي لن تصمد إلا سنوات قليلة ولن أجد بعدها ما يسترني، ماذا بعد أن يلتهم الشيب رأسي وتضعف قواي؟ لم يرزقني الله بالأبناء لا يوجد من يعينني في شيخوختي، ماذا أفعل؟

ما هي إلا دقائق وأمسكت بجهازي المحمول، طلبت ثلاثة طلبات من ثلاثة أماكن مختلفة، أحضرت ثلاث ورقات مالية بعملة خمسة جنيهات، كتبت على كلٍّ منها كلمات لها شكل النبوءة وطبَّقت الورقات في شكل هرمي ليكون لمن أعطيها له شغف فتحها وقراءة ما بها. جاء الشخص الأول وكان ممرضًا، يعمل في الصيدلية بأول الشارع، طلبت حقنة فيتامين لم أكن بحاجة إليها وأعطيته الخمسة جنيهات الأولى مكتوبًا عليها:

"يومًا ما سوف تكون أنت الطبيب الصيدلي بتلك الصيدلية التي تعمل بها".

أما الثاني فكان سائق دليفري، تركته بالخارج فترة حتى ملَّ الوقوف ثم خرجت وأعطيته ثمن الوجبة والخمسة جنيهات مطوية مكتوبًا عليها:

"يومًا ما سوف تكون أنت صاحب ذلك المكان الذي تعمل به".

أما الثالث، هو ابن حارس العقار، الغلام الذي لم يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا وقتها طلبت منه بعض البقالة وأعطيته الخمسة جنيهات مكتوبًا عليها:

"يومًا ما سوف تكون أنت مالك تلك البقالة التي تأتيني منها ببقالتي الشهرية".

لا أعرف أكانت مجرد كلمات على ورقة النقود أم تعويذة تحقق لمن يقرؤها ما هو مكتوب بها، الآن وقد هَرِمت ولم أعد أملك ما يؤويني ولكني ملكت شيئًا أهم من ذلك؛ ملكت التحكم في أحلام هؤلاء، جعلتهم يعملون لسنوات يتحدون الصعاب لأهنأ أنا، يهرولون في الحياة لأنعم بها، كان لا بُدَّ من أن أجد أحد يعمل من أجلي وإلا متُّ جوعًا ومرضًا. أجلس في بيتي الآن يأتيني دوائي شهريًّا بالمجان من الصيدلية بأول الشارع بعد أن أصبح الممرض دكتورًا يعمل بها، فقد علمت أنه درس ثانوية عامة وحصل على مجموع كبير ودخل كلية الصيدلة وأصبح دكتورًا في نفس الصيدلية التي كان يعمل بها ممرضًا وهو الآن يشارك صاحبها بها، أما الغلام ابن حارس العقار، وكأنَّ شيطانًا تلبسه ذلك الأخرق، رأيته يعمل ليل نهار بالبناية بلا توقف كآلة، بل وبجانب ذلك عمِل سمسارًا واتفق مع بوابين العمارات المجاورة ليأتي لهم بالزبائن لتسكين الشقق الفارغة، أصبح لديه سيارة أجرة، يأتي بزبائنه الخليجيين من المطار وكثيرًا ما كان يقع شجار بينه وبين بوابين البنايات المجاورة على أموال السمسرة فكان يطمع بها، وأصبح له شقة يؤجرها مفروشة

ولم يكتفِ بذلك بل عرض على صاحب البقالة مبلغًا كبيرًا لشراء بقالته ولكنه رفض، وفي ليلة سوداء استيقظنا على حريق هائل بالبقالة دمرها بالكامل.

لم يسلم الفتى، لحقته الاتهامات بأنه هو الفاعل، وخاصة بعد عرضه على صاحب البقالة، بأن يدفع له في إعادة تجهيزها على أن يشاركه فيها، وافق صاحبها على مضض.

يرسل إليَّ الصبي بقالتي شهريًّا دون أن يطالبني بثمنها.

أسمع جرس الباب، من الذي يأتي في ذلك الوقت؟ ليس هذا ميعاد الصيدلي ولا البقال، من يكون الطارق إذًا؟

ـ السلام عليكم سيدتي، أتتذكرينني؟ أتيتك هنا منذ عدة سنوات وكنت حينها سائق دليفري، أعطيتني خمسة جنيهات كتبت عليها نبوءة وقد تحققت بالفعل، ولكِ مني وجباتك اليومية دون أي مقابل مادي.

ـ انتظرتك، وكنت أعرف أنك سوف تأتي، أين كنت كل تلك السنوات؟

ـ بعد أن قرأت نبوءتك لم أصدق ما بها، عملت لعدة أشهر في محل المأكولات، ثم تركته وذهبت للعمل بالنقاشة في شركة مقاولات عقارية، فأنا في الأصل خريج فنون جميلة وأجيد شغل النقاشة والرسم على الجدران، تعاقدت معي الشركة على العمل بمشروع لها في إحدى دول الخليج، سافرت وبقيت هناك لعدة سنوات، وها أنا قد عدت محملًا بالأموال. انتظرت حتى إعلان صاحب محل المأكولات عن بيعه وذهبت للمزاد، حصلت عليه بمبلغ مبالغ فيه لكن لا يهم، المهم أنني أصبحت

صاحب المكان بالفعل، وها أنا أمامك الآن أحمل لك الجميل وأريد مكافأتك على نبوءتك لي.

ـ لم تكن نبوءة، بل هي تعويذة تحمل لمن يقرؤها ما بها من خير، وعليَّ أن أحذرك فإن لم تستمر بوعدك لي في إرسال الوجبات سوف تنقلب عليك التعويذة وتفقد محل المأكولات وتعود كما كنت سائق دليفري.

***

سيرة ذاتية

نظرت إلى شباك تذاكر محطة القطار، فوجدته مزدحمًا بالراغبين في شراء تذاكر السفر، تعالت الأصوات مطالبين الموظف بالعجلة فقد سمع نفير وصول القطار، حصلت على تذكرة بعد معاناة وركضت ألحق الركب. رأيته للمرة الأولى، شاب أنيق يسير بخطوات سريعة حريص على أناقته يبتعد قليلًا عمن حوله فيحافظ على حذائه اللامع من أن يدهسه المارة. كان يحمل حقيبة جلدية متجهًا من المدينة إلى المحافظة بالوجه البحري، بدا لي متقلب المزاج سريع الغضب فما أن ركبت بجانبه، بجسدي الممتلئ، بدأ في التأفف فأنا كثير التعرق خاصة في يوم صيف حار كذلك اليوم.

كنت متحرج وأنا ألاحظ عليه انزعاج من رائحة عرقي وحاولت جاهدًا أن أتدارك الموقف وابدأ معه حوار يحول المشهد لأُلفة بيني وبينه. نظرت له رأيت ملامحه جامدة وأحسست أنه لا يأتلف بسهولة، بدأت حوارًا عن حرارة الجو الملتهبة لكن في الحقيقة أنها لم تكن ملتهبة أكثر مما هو بداخل الشاب الأنيق، بدوت وكأني أحدث نفسي فلم أجد عند الشاب شغف الحديث ولاحظت ضيقه واقتضاب حاجبيه كلما تماديت في الحديث، قلت في نفسي:

ـ لعل الشاب الأنيق لا يحب الثرثرة، ربما يعاني مرضًا ما جعله يسافر للمدينة للعلاج وهو الآن في رحلة عودته، أو يواجه مشكلة ما، لعل زوجته غاضبة عند أهلها ويشتاق لرؤية أطفاله الذين أخذتهم معها، ربما أحدُ أطفاله يعاني حالة سيئة أو أن أمه مريضة ويسافر لرؤيتها، أو أنه يواجه مشاكل في العمل جعلتهم ينقلوه

لمكان بعيد عن مدينته. ما علي، فقط أردت أن أهوِّن عليه ساعات السفر ولكنه يأبى الحديث معي فلا داعيَ لإزعاجه، أغمض عيني قليلًا لعلِّي أضيّع الوقت في النوم ذلك أفضل من مشاهدة ذلك الشاب المتأفف بجانبي فالوقت معه مُمِلٌّ للغاية.

ثم أغمضت عيني ولدقائق معدودة ذهبت في نوم مصحوب بشخير عالٍ، أعرف ذلك من زوجتي فهي دائما ما تقول لي أني أشخر بصوت عالٍ أثناء النوم، استيقظت على فَرْك الشاب بجانبي وشعرت انزعاجه للمرة الثانية، تأسفت له، ولكن بدا عليه الضيق والقلق وازدادت حركته تدريجيًا وبدأ بالنظر من الشَّباك، وبعد قليل جاء عامل البوفيه، طلب منه الشاب كوبًا من القهوة السادة.

انصرف العامل وشاهدته يرمقني بعينه متأففًا مني، مرت الدقائق وأتى عامل البوفيه بالقهوة وهمَّ في تقديمها له ولكنها انزلقت من يده ووقعت على بنطاله فهب من مكانه واقفًا في الحال منزعجًا وصاح في العامل ناهرًا إياه بشدة.

رأيت توتر عامل البوفيه وحاولت تخفيف الموقف وحل الأزمة، طلبت من العامل الذهاب سريعًا وإحضار ماء ومنشفة لتنظيف بنطال الشاب الأنيق، الذي جلس مكانه وكان في شدة غضبه، وجدتها فرصة عظيمة لاستدراجه في الحديث، وبدأت في توجيه له بعض كلمات التهدئة:

ـ معلش دا حتى دلق القهوة خير إن شاء الله تروح مشوارك وربنا ينصرك فيه.

لم يبادلني الحديث، تابعت:

ـ يوحي مظهرك الأنيق بأنك على موعد مهم، يبدو أنك تعمل في إحدى الشركات الكبيرة.

لم يهتم بالرد فكان مازال غاضبًا، نظر لملابسه في عصبية، وصاح في:

ـ اسمع يا حضرة، أنا لا أحب اتكلم مع حد ولا أحب الرغي، ومن البداية كنت أرغب في حجز كرسي منفردًا لكن للأسف لم استطع الحصول عليه بسبب تأخري في الحجز، فإذا سمحت لا تكلمني حتى يصل القطار محطته ونفترق.

امتصصت حرجي وصمت، جاء عامل البوفيه ومعه منشفة مبللة نظف بها بنطال الشاب ورحل. عاد الهدوء للقطار ورأيته يفتح حقيبته الجلد أخرج منها ورقة وقلمًا وانهمك في الكتابة، مَدَدْت عيني أحاول رؤية ما يكتب وابتعدت فور أن التفت إلي، ولكنه بادلني الحديث، قال معتذرًا عما بدر منه تجاهي منذ قليل:

ـ أنا آسف على العصبية اللي كلمتك بها من شوية.

قلت في سماحة :

ـ ولا أسف ولا حاجه شكلك مشغول أوي، رأيتك منهمكًا في الكتابة.

ـ بالفعل، أكتب سيرتي الذاتية ولا أعرف من أين أبدأ فلدي العديد من المؤلفات والنجاحات واشتركت في الكثير من المؤتمرات وعايشت أحداثًا هامة وكان لي رأي مهم في أزمات عدة مرت بها البلاد.

ظهر علي انبهارًا به، قال:

ـ من بداية أن رأيتك عرفت من مظهرك الأنيق أنك شخصية مرموقة في المجتمع، لكن اعذرني فأنا لست على دراية جيدة بالشخصيات العامة ويشرفني أن أتعرف بك عن قرب سيدي.

ارتسم على وجهه فخر وظهر اعتزازه بنفسه جليا وهو يعرض علي أعماله الهامة في مجالات عدة، بدأ في التعريف بنفسه، قال:

ـ أعمل في البورصة ولي العديد من المؤلفات عن سوق المال والاوراق، تتهافت عليَّ الشركات الكبرى لإنقاذها من الإفلاس والأزمات وما شابه، وأسعى الآن للعمل بالبورصة العالمية.

كنت أنظر له في اهتمام بالغ، رحت أرحب به وأعربت عن سعادتي بالصدفة التي جمعتني به في القطار، سألته على استحياء:

ـ لكن قل لي، كيف حققت كل ذلك في سنك الصغير هذا؟

وكانت إجاباته الواثقة تبهرني، قال:

ـ أعمل منذ ثلاثة عشر عامًا، كنت من أوائل الثانوية العامة وتخرجت من كليتي بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

فتح حقيبته يبحث عن شهادة الكلية، نظر إليها في فخر قبل أن يعطيها لي لأتحقق منها.

الاسم: مختار على عبد التواب، ناجح بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف.

اطلعت عليها واستنفرت في نفسي؛ فليس من الطبيعي أن يسير رجل هام في مركز الشاب الأنيق، حاملًا شهادة تخرجه من الجامعة معه، حاولت ألا أظهر اندهاشًا، أكمل حديثه:

ـ رشحني أستاذي للعمل في شركة من أهم الشركات الكبرى التي تحمل احتياطيًّا نقديًّا ضخمًا ولكنها لم تكن طموحي، قبلت بها وظيفة في بادئ الحياة العملية واجتهدت فيها وبذكاء أصبحت أهم موظف بالشركة، لي مؤلفات عدة خاصة بسوق المال والأعمال تستعين بها الشركات الكبرى في تحسين وضعها المالي ويطلبونني لتقديم نصائحي لهم.

أظهرت إعجابًا بما سمعت منه، قلت:

ـ ليت كل الشباب مثلك يتبعون مسيرتك نحو النجاح بدلًا عن الولولة على حالهم ليل نهار،

إذًا إلى أي مدى تريد الوصول؟ ألن تكتفي بتلك النجاحات في حياتك؟

اعتدل في جلسته، خلف ساقًا فوق أخرى، قال وكأنه يجري مقابلة صحفية لجريدة مشهورة:

ـ قلت لك أريد الوصول للعالمية، فأنا الآن منهمك في كتابة سيرتي الذاتية لتقديمها في إحدى الشركات الأجنبية الكبرى التي تعمل في مجال البترول ويمتلكها أكبر مستثمر أجنبي في الشرق الأوسط، أطمح إلى الحصول على مركز مرموق بها فهي قد أعلنت عن حاجتها لمدير مالي لفرعها في العاصمة.

ـ وفقك الله، أنت مثال للشاب المجتهد الطموح الذي أحب أن أراه دائمًا، آسف لأني أزعجتك في بادئ الأمر فأنت رجل ذو فكر مشغول دائمًا كان عليَّ أن أنتبه لذلك لكن لا تؤاخذني أنت عائد من العاصمة فهل تعيش في المحافظة الصغيرة.

ـ لا، بل إني ذاهب لعمل، فقد انتدبتني إحدى الشركات الهامة هناك لمساعدتها في أزمتها وانتشالها من الإفلاس.

ـ أنا سعيد جدًّا بلقائك وأود رؤيتك مرة ثانية.

ابتسمت وفي رجاء، سألته:

ـ لا تؤاخذني، ولو أن فيها شيء من التطفل مني، تِسمحلي بكارت حضرتك؟

ـ أه، طبعًا.

فتش في جيب بدلته وحقيبته الجلدية، وقال في حسرة:

ـ آخ، آسف جدًّا من الواضح أن كروتي قد فرغت، الكثيرون يطلبونها مني، ولكني سوف أطبع غيرها بالتأكيد.

قلت وكنت أعض على شفتي، لاعنًا حظي:

ـ ذلك من سوء حظي.

ـ أستأذنك، القطار وصل محطته.

عرضت عليه خدماتي، قلت:

ـ معي سيارتي، أضعها دائمًا في جراج المحطة، وسوف يكون لي شرف إقلالك سيدي إلى أي مكان تحب.

بدا منتشيًا، قال في سعادة بالغة:

ـ شكرًا، تنتظرني بالخارج سيارة الشركة وسوَّاق يُقلني إلى مقرهم.

اتجهنا معًا للخروج من القطار، توقفت حين لاحظت أني نسيت محمولي على المقعد، عدت ثانية أبحث عنه، نظرت أسفل المقعد وجدته بالفعل، وهممت أن انهض، لفت نظري ورقة أسفل مقعد الشاب الأنيق، قلت في نفسي:

ـ لعلها هي تلك الورقة التي كان يكتب بها سيرته الذاتية، سوف أحملها لأعطيها له لعله يحتاج إليها.

نظرت بالورقة وتعجبت فلم أجد إلا رسم كروكي لشجرة شامخةٍ فروعُها مُعوَجٍ جذعُها لم أفهم حينها مكنون الورقة ولكني تجاوزت الأمر وترجلت متوجهًا إلى مخرج القطار، بحثت عنه لأعطية الورقة لكنه كان قد ذهب.

اتجهت لعملي وبعد انتهاء اليوم، فكان شاقًا، ذهبت أتسوق من إحدى المتاجر الكبيرة لدينا بالمحافظة، اعتدّت التردد عليها أتبضع منها مخزون البيت الشهري من دقيق وأرز ولحم وبعض المُعلَّبات، استعين بابني عبد الرحمن ليحمل معي المشتريات. وقفت في الطابور أمام الكاشير بعد أن انتهيت من التسوق إلى أن جاء الدور علي، صحت في عبد الرحمن:

ـ يا عبد الرحمن ساعدني، احمل عني بعض الأشياء وضَعْها أمام الكاشير.

مد عبد الرحمن يده يلبى ندائي له.

بدأت في عد المشتريات ويضرب موظف الكاشير كود السلعة تلو الأخرى على الماكينة، وفور أن انتهى، نظر لي يبلغني بإجمالي التكلفة لمشترياتي وإذ بي أراه للمرة الثانية، إنه هو شاب القطار الأنيق.

تعرَّق وجه الشاب بينما تلعثمت أنا، أخرجت محفظتي ودفعت ثمن مشترياتي، صحت في عبد الرحمن كي يحمل معي الأكياس والعجلة، توجهت للخروج مسرعًا من المتجر دون أن ألتفت ورائي محاولًا إظهار عدم قدرتي على التعرف على الشاب الأنيق.

***

سلمى

ظلام اعتدت عليه، هدوء لا يتخلله إلا دقات ساعة منتظمة، كثيرًا ما تسعدني بعض الأصوات، تأتيني متناغمة تطربني أشعر معها بالانسجام وتكسر ملل يومي، أحيانًا أشعر باحتياجي للاستمتاع قليلًا بالسباحة وبعض التمارين الرياضية علِّي أجد فيها المرح، أتحسس بيدي حبلًا يربطني، عالقًا أنا به، يومًا ما التفَّ حول عنقي، كدت أن أختنق لولا أني خلَّصت نفسي منه. بقيت طويلًا في هذا المكان يأتيني أحيانًا النعاس وأغطُّ في نوم عميق لساعات، أستيقظ لأكتشف أن حجمي قد زاد وأشعر بضيق المكان، ولكنه يحتويني ويعطيني الراحة والاطمئنان. لا بأس فربما عليَّ أن أثني قدمي، أعتقد أن حجمي لن يزيد عن ذلك أو ربما يزيد قليلًا لا أدري .

ما هذا؟ أشعر بشيء يدفعني للأمام، ما ذلك الشيء الذي أراه؟ نفق وضوء شديد في آخره وما زال ذلك الشيء يدفعني للأمام لا بد أن أقاومه، عيناي لا أستطيع فتحهما ضوء شديد ما هذا الصخب حولي؟ أذني تؤلمني، أشعر بالبرودة أين الدفء أريد الرجوع؟

أترين أن كنت واصلت الصراخ حينها أكنت عدت لما كنت؟ ربما خطئي الوحيد هو أني استسلمت للأمر وكففت عن الصراخ، أتعلمين يا سلمى كل ذلك يهون طالما أنتِ ما زلتِ بجانبي تُضحكيني، نجري ونلعب ونقضي أوقات مرحنا معًا، كل شيء يهون لدرجة أني الآن لا أفكر مطلقًا في الرجوع، أتتذكرين ذلك اليوم عندما وقعتُ في الطريق؟ كادت عظام ركبتي أن تتمزق، بكيت بشدة من الألم

ورغم ذلك استطعتِ أنتِ إضحاكي في دقائق معدودة، أتتذكرين شجرة التوت؟ تسلَّقتُها دون خوف حتى وصلت لأعلاها أجمع ثمرها، كاد الفرع أن يسقط بي لولا أنك أمرتِه بالثبات فثبت مكانه حتى انتهيت، أتتذكرين يا سلمى ذلك اليوم الذي اشتكى مني فيه مدرسي لأبي؟ لم أكن أذاكر واجباتي، أنقذتِني أنتِ عندما ألهمتِني بالبكاء قبل أن يضربني فتركني وشأني بل ربت على كتفي وطمأنني وأفَلَتُّ أنا من العقاب، أتتذكرين حين أخبرتك بأني لا أحب المدرسة، أشرتِ عليَّ بادِّعاء المرض وصَدَّقتني أمي المسكينة وأبقتني بالبيت، كم كان كل شيء سهلًا بسيطًا أتتذكرين مخبأنا وطعامنا؟ جُبنًا وبيضًا وقطيطة من عجين الخبز تصنعه لنا أمي بالفرن، نأكل حتى نشبع ونخرج للمرح والغناء، أتتذكرين الإوَزَّ والترعة أمام الدار وجذع النخلة نعبر من فوقه للغيطان؟ أتتذكرين أمسياتنا يا سلمى، جدتي وحكاويها، الخنفسة والجعران والشاطر حسن وابنة السلطان؟ بعدها تسحبني أمي من يدي لغرفتي تضعني في فراشي أستعد للنوم، تطفئ نور الحجرة وتتركني وتخرج لتبقَيْ أنتِ بجانبي، أتتذكرين تلك العجوز بالركن؟ كنت أخرج رأسي من الغطاء أراها تنظر لي فأدخلها سريعًا تحت الغطاء، لم أتذكر أنها قامت بإيذائنا يومًا ولم تتحرك هي أبدًا من الركن، لكننا كنا نخاف منها.

لم أنسكِ يومًا يا سلمى، لم أنسَ يوم مات أبي وتاهت عيناي وسط الحضور أتساءل ماذا حدث؟ لم يجاوبني أحد وأخذت أنتِ بيدي جرينا وسط الحقول لعبنا وضحكنا حتى تعبنا وألقينا بجسدينا تحت شجرة التوت نتناول ما يتساقط منها فوق رؤوسنا حتى شبعنا وغلبَنَا النعاسُ ونِمنا للصباح، استيقظت يومها على صريخ أمي وإخوتي، كانوا يبحثون عني طوال الليل.

ومرت السنوات وأنتِ تصاحبيني كنسمة صباح وكبرنا ونازعتني فيكِ أهوائي وتناجينا.

قلتُ:

- طباعك لينة كرشفة ماءٍ وملامحك هادئة كوردة في بستان، روح الدعابة لا تفارقك فتنسيننني آلامي، تورُّد وجنتيك حياءً ونظرة عينيك شفاء.

قلتِ:

- حياتي معك يسيرة وأيامها خفيفة كريشة في الهواء، أملك مفاتيح عِقدها وأغزل خيوط لياليها وأصل نهارها بلهفة اللقاء.

قلتُ:

- معكِ لا أشعر بالوقت ولا أحسب لما هو آتٍ، أراكِ نسمة رطبة في يوم صيف حار، كأول قطرة من غيث بعد جفاء، قالوا عنك عقاب لمن هم مثلي من الضعفاء، شوقى إليك يكويني والبعد عنك يضنيني.

قلتِ:

- يا من كنتَ لي الأمان وبك أشعر بالاكتمال، تُرى ما هو سر هذا الجمال؟

قلتُ:

- السر يكمن في جمال الروح قبل الكيان، أنت هو السر والحلم، صوتك ناعم كآلة كمان، خصالك رقيقة والبساطة عنوانك، محياك جميل ومجلسك ينعم بالحياة.

قلتِ:

- ومن أين تبدأ الكلام؟

قلتُ:

- إن الرجل مثل كوكب في مدار، ليس من طبعه الثبات، بل إنه دائمًا ما يسعى وراء الشقاء وقربك مني يشعرني بالراحة والاستقرار، ممنون لذلك ولكني أشعر أنك لا تغنيني وأسعى للاكتفاء.

قلتِ:

- يا عزيزي، يمر بالكوكب فصول أربعة كنت أنا لك منهم الربيع، أكمل مدارك فلن تجد إلا العناء، والفراق في شرعنا خلاص، أنت قلت إني بسيطة كرشفة ماء، وأنا أقدر شغفك للجديد ولا أقبل أني لا أكفيك، أريد رجلًا لست فقط كوني أكفيه، بل أكون له الكفاية وسوف أسعى حتى يتمتم في صلاته بالحمد لبقائي في حياته للنهاية.

تركت ربيعي منذ سنين ودرت أسعى وراء الشقاء وصاحبني الأنين، أبحث لعلِّي أصل للاكتفاء. نهضت وذهبت أبحث عن ذاتي، أضعيف أنا أم تقودني ملذاتي؟ رأيتني أفقد بَوصلتي وألهث وراء السراب أشرب من كأسٍ قالوا لي أن فيها الشفاء، أشرب المزيد أدور وأدور أرقص وكلما رقصت علت روحي وسقط جسدي ودخلت عالم الفناء، رأيت أيوب بالطريق وبيده الماء، اغتسلت بللت لحيتي وثوبي وضحكت فرحًا بالنقاء، سمعت المنادي، فقت، التفت، لم أجد أيوب ورأيت من أمامي رجلًا بيده دلو ماء يُلقيه فوقي ويصيح بي: انهض فأنت ما زلت بدار الشقاء.

شعرت بالغضب يمتلكني واعتصرني الألم فصرخت، والآن وقد أضعتني في الطريق أبحث عني في العيون، وتُعكس صورتي بانكسار .وسرت أبحث عن سلمى في الوجوه، أتراها تتهرب مني أم أن قطار العمر ليس له سكة رجوع.

ومر العمر ولقيتني أنشد خريفي، وكلما التقيت بحبيب أفتش عن سلمى بداخله، براءة عينيها، دعابة روحها، جمال محياها وبساطة مجلسها .أشتاق وأيامي معها كنت إذا وقعت مدت يدها لتنقذني، تضحك فتضحكني، كانت آلامي بسيطة وعثراتي طفيفة، من بعدك يا سلمى كادت عثراتي تقتلني، التقيت يأجوج ومأجوج وكاد طوفان نوح يغرقني، ضربت ذبابة النمرود برأسي، من بعدك يا سلمى حاربت الطاغوت.

تعثرت وأيوب بالطريق، ضربت الأرض بقدمي وأطحت برأسي يمينًا ويسارًا، درت ودرت حتى دخت وكلما رقصت وصلت للتجلي ودخلت عالم الفناء وصرت أرى الله وملائكته والملأ الأعلى، ورأيتني أقرأ من عند العرش: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَاب}. اغتسلت وبللت ثوبي ولحيتي ورأسي وحين هممت لأروي ظمئي سمعت المنادي ينادي ولم يراعِ لوعتي واشتياقي: انهض يا رجل لقد أصابك الإغماء. رأيت دلو الماء بيده ورجالًا بجلاليب من حولي ما زالوا يرقصون، يضربون الأرض بأقدامهم يدورون ويدورون حتى يقع منهم من يصل مثلى للسماء، يتجلى، يرى الله وملائكته ويلتحم بالملأ الأعلى لا يرجعه إلا رجل يمسك بدلو الماء يلقي به فوق جسده ليفوق ويقوم عاهدًا على العودة مرة ثانية علَّها تكون الشفاء...

***

صعودٌ مُخجل

أسند يده بحوض الاغتسال، ونظر بالمرآة، وأطال النظر حتى احمرَّ وجهه وكاد أن يجهش بالبكاء لولا أنقاطعه أحدُ العاملين بالقناة يقتحم عليه المكان ويَحرمه تفريغ ما بداخله من حزن. فوجئ العاملُ بالشيخ وحاول الحديث معه فجاء صوتُ الشيخ متحشرجًا مخنوقًا الأمر الذي أثار انتباه العامل ليسأله في قلق، عن حاله وإذا ما كان يحتاج مساعدة؟ شكره الشيخ وفور خروج العامل، انهمرت دموعه حتى بللت لِحيته، حاول استعادة نفسه قبل أن يخرج من دورة المياه، هدأ قليلًا، ثم غسل وجهه وجفَّفه بمنديل في جيبه وأعاد هندمة شعره ولبس نضارته السوداء، وذهب قاصدًا الخروج من مبنى القناة الفضائية بعد أن أنهى عمله بها ليستقلَّ سيارته البورش الفارهة.

ظهر الرجل في لباس التقوى يتقدم الصفوف يرفع جلبابه الأزهري في حرص خوفًا أن تلوثه الدماء حتى وصل لمقدمة المُصلِّين يتأهب لإلقاء خطبة الجمعة.

جابر من الأزهريين الشباب الذي جاء تعيينُه من الأوقاف في أكبر مساجد المدينة وأهمها، لم يكن أفضل طلاب دفعته وإنما كانت له تلك الكاريزما التي تجعله يستطيع التواصل بسهولة مع أتباعه فاستطاع بلباقة وذكاء الصعود أكثر من درجة في وقت قصير، كانت لديه الشجاعة في التعامل مباشرة مع أساتذته في كلية أصول الدين، تخصص جابر في قسم العقيدة والفلسفة مما جعله يُتقن ترتيب الكلمات وفنون الردِّ والنقاش، كان دائم التواجد في حجرة الأساتذة بالكلية للنقاش في مسألة شرعية، أو للسؤال عن مسألة خلافية بين العلماء، فكان لديه القدرة على

إشغال فكر الأساتذة في أمر فقهي لعدة أيام مما جعله دائم التواجد بدروبهم ونُصب أعينهم.

لم يأتِ تعيين جابر في ذلك الجامع الكبير محض صدفة، إنما جاء بتوصية من أحد أساتذته الكبار وله كلمة مسموعة في وزارة الأوقاف، وبعد أن أخذ ملفه موافقة أجهزة الدولة العليا.

ظل جابر لسنوات في مكانه يقيم الصلاة ويؤدي واجبه المحتَّم عليه دون أن يضايق الأجهزة الأمنية؛ فلا ينجرف وراء دعوات الشارع الثائرة ولا يُلقي بكلمات غاضبة في خطبة من قبيل تلك التي تجعلهم يضعون فوق اسمه الدائرة الحمراء، بل كان مسالمًا وأحيانًا ما كان يتودد للنظام، يحثُّ الناس على طاعة ولي الأمر في خطبة يوم الجمعة. شارك جابر صديقَ عمره الشيخ عبيد، المسكن بحي الحسين، دائمًا ما يلوم عليه الشيخ عبيد بُعده عن صوت الشارع وقضايا الأمة الإسلامية ونصرة القدس، تذكَّر يوم دخل عليه عبيد حجرة المدينة الجامعية وقد أخذ عَلقةَ موتٍ من رجال الأمن، والذي نجا منهم بأعجوبة في مظاهرة داخل أسوار الجامعة لنصرة القدس، وعندما سأله الشيخ عبيد:

- أين كنت؟

أجابه جابر:

- كنت في حجرة الأساتذة أتناقش معهم في حكم الخروج عن الحاكم

وبالرغم من مظهر الشيخ عبيد الدال على اشتراكه في المظاهرات وتعرضه للضرب سأله جابر:

- وأنت، ماذا حدث لك؟

أجابه:

- كنت أحاول الخروج على الحاكم.

وفي يوم وأثناء احتشاد الملايين في الميدان مطالبين بسقوط النظام أشار عليه الشيخ عبيد أن يذهب معه للميدان يشاركهم الثورة ويطالب بما يطالبُ به الثوار من نشر العدل والمساواة في المجتمع، تردد الشيخ جابر في البداية لكنه وبِحِسٍّ ذكيٍّ أدرك ما تسير نحوه البلاد وأحس ضعف أجهزة الدولة وأدرك أنها بداية سقوط النظام، فلِمَ لا؟ وذهب بالفعل للميدان مع صديقه الشيخ عبيد.

يختلف الشيخ عبيد في صفاته عن جابر، فهو يميل للهدوء، يتملكه خجل، يتحلى بالبشاشة والسماحة ولديه مبادئ لا يَحيد عنها أبدًا، وصل الصديقان للميدان وكان هناك الشيخ صبحي السريع، لُقِّب بهذا الاسم ممن هم في ريعان الشباب، فكان له الفضل في إقبالهم على المسجد وسماع خطبة الجمعة- خطبة العشر دقائق- هكذا أطلق عليها الشباب، يُوجِز فيها الشيخ صبحي من القصص الدينية ما يحتاج الفتية سماعه ثم يبدأ الصلاة، ألقى عليه جابر التحية وَرَدَّ الشيخ صبحي بمثلها وسلم عليه بحرارة وسأله:

- كف حالك مع الله؟

أجابه جابر:

- الحمد لله، أُقيم فروضي وأحفظ نفسي من المعاصي ولا أبخل بعلمي .

أثنى عليه الشيخ صبحي ورحل كل في اتجاهه.

حان أذان الظهر وسارع جابر ليَؤُمَّ المصلين، فكان حريص على دوره في الإمامة طوال أيام الثورة، وكان صوته الشجي ودعاؤه الصادح الذي يبعث الشجون في القلب سببًا كافيًا لتمسُّك الثوار به ليُطلقوا عليه لقب (إمام الثورة)، ولكنه وعند بَدء المعركة وفي كل مرة يُسرع ليخرج من الميدان مُتجهًا إلى مقهى يعهده، يجلس ليشرب القهوة حتى تهدأ الأمور في الميدان ثم يعود وقت الصلاة.

سقط النظام وظهرت شاشات القنوات الفضائية وبرامج التوك شو تعجُّ بحكايات الميدان ووجوه الشباب من الثوار، وظهر الشيخ الشاب ببدلة وجرافات بدلًا عن الجبة والقفطان، ورأس منمق لأول مرة لا تغطيه العمامة، تحدث بنفس اللباقة التي اعتادها؛ أشاد بالثورة وتكلم عن دورة فيها ومساندته للثوار.

تكررت اللقاءات التليفزيونية مع الشيخ وأصبح وجهه مألوفًا لدى العامة وبات الشارع يصدع بآرائه وتعليقاته على الأحداث وما يُدار بالبلد من تغيُّرات بل وتطور الأمر، فتم التعاقد مع الشيخ فى إحدى القنوات الفضائية ببرنامج يكون هو ضيفه يستمع له الناس أسبوعيًا.

ظهر الشيخ على الشاشة في الميعاد المحدد، ينتظره عدد لا بأس به من المشاهدين، جلست أمامه مذيعة مُحجَّبة مشهورة تسأل وهو يجيب بحكمة وتعقُّل حتى جاءت فقرة أسئلة المشاهدين، الاتصال الأول:

المتصل:

- السلام عليكم يا شيخ، أنا شاب في الخامسة والعشرين من عمري لأسرة مسيحية؛ أب مصري وأم لبنانية اعتنقت الإسلام في سن التسعة عشر، وعندما أعلنت إسلامي قاطعني أهلي وتمَّ طردي من البيت، لي مدخر من المال فأنا أعمل منذ سن مبكر، رغم أني من أسرة ميسورة إلا أن أبي دفعني للعمل من الصِّغر، استطعت استرجاع مقهى كان أبي قد سحب ملكيته مني. تعسرت ماديًّا في البداية ولكن استطعت بعد ذلك عن طريق دخل المقهى، أشغل الأموال بفوائد ثلاثين في المائة، ربحت الكثير واشتريت مقهى آخر، يقول البعض أن ربح الأموال من الفوائد حرام، علمًا بأني لا أتعامل مع البنوك فما هو الصواب؟

جاء ردُّ الشيخ قاطعًا، قال:

- قال تعالى: [يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ] وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أثيم. الفوائد في شرعنا رِبًا، جنبنا الله وإياكم ما يغضبه.

جاء صوت المتصل موضحًا:

- لكنني يا شيخ لا أتعامل مع البنوك.

- ما يدخل جيبك من فوائدَ مِن أي مصدر هي حرام، فهذه ليست تجارة فيها المكسب والخسارة، وإنما هي فوائد ثابتة بنسبة محددة، وهذا نوع من أنواع الربا فهي حرام، يرزقنا الله وإياكم.

انقطع الاتصال، وتتساءل المذيعة:

- يعمل إيه يا شيخ إذا كان أهله مقاطعينه وهو لا يملك ما يكفيه للحياة.

- القليل بالحلال خير له.

- وماذا عن والديه؟

- قال تعالى: [... وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا]

جاء الاتصال الثاني، المذيعة:

- ألوو، اتفضل:

- يا شيخ، أنا رجل في العَقد الثالث من عمري متزوج وزوجتي تعمل وتخرج كل يوم للعمل بكامل زينتها وتحدثتُ معها ولكن دون استجابة منها، فماذا أفعل؟

- قال تعالى: {... وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ...} أي أزواجهن، فالمرأة تتصنع لزوجها كيفما تشاء بما لا يكون بحضرة غيره، أما خروجها من البيت متبرجة يراها الأجانب حرااام، وذنب تؤثم عليه.

- وما حكم الدين في عدم طاعتها لي؟

- لك القِوامة، وعليها الطاعة، فإن عصت فالجأ لحكم الله.

- وما هو حكم الله يا مولانا؟

- قال تعالى: {... وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا...] واجب عليك تقديم النصيحة لها وتوجيهها إلى الخير واصبر عليها، فإن لم تستقم فالهجر، فإن لم تستقم فتأديبها التأديبَ الخفيف الذي ما فيه جَرح ولا خطر؛ أي غير مُبرِّح حتى تستقيم.

خرجت المذيعة عن صمتها معترضة، قالت:

- يعني دا مش حرام؟ زوجي يخرج معايا وهو في كامل أناقته وأنا ابقى جنبه بدون زينتي، وكمان لو أردت التجمُّل أضِّربْ! ليه كده؟ دا ظلم للمرأة ومين يرضى بكده؟

تكمل بصوت مختنق غاضب:

- أحيانًا تحت العين بيبقى في هالات سوداء محتاجة تدَّارى وساعات الست بتلاقي وجهها غير نضر محتاج ميك اب خفيف عند الخروج، إيه المانع؟

جاء رد الشيخ حادًا:

- هذا ليس بكلامي، وإنما هو حكم الله في كتابه الكريم.

قطع النقاش الاتصال الثالث:

- يا شيخ، أعمل في بنك وأتقاضَى مرتبًا على عملي به، وأنت قلت في الاتصال الأول: أن التعامل بالفائدة حرام، وأنا أتقاضى راتبي من البنك الذي تقوم أساس التعاملات فيه على الفائدة، فما هو حكم الدين في راتبي منه؟

- تتقاضى راتبك على مجهود تقوم به داخل البنك وهذا حلال، أما أن تعاملتَ مع البنك بفائدة كأنْ تأخذ قرضًا، أو تدخر فيه مالًا بفائدة ثابتة فهذا هو الحرام.

قالت المذيعة معترضة:

- يا مولانا، اهدى بس علينا كده واسمعني، أولًا: ادَّخار الأموال في البنوك هو اللي بيقوي اقتصاد البلد، الدولة تقوم بتمويل مشروعاتها عن طريق ادخار المواطنين أموالهم في البنوك. وأهي بدل ماهيَّ مركونة في البيوت تشتغل وتجيب

ربح نستفيد منه والدولة تستفيد، تاني هام: هنحط فلوسنا فين يعني؟ هنرجع نحطها تحت البلاطة زي أيام جدودنا!

جاء رد الشيخ كالعادة، قاطعًا جازمًا:

- الادخار من غير فائدة ليس فيه شيء أما أن يكون بفائدة ثابتة هذا هو الربا بعينه ولا يوجد به أيُّ خير للمدَّخِر ولا للبلد، بل هو خراب وإفلاس للطرفين فهي أموال حرام تخالف شريعة الله.

- يا مولانا، البنوك بتمول مشروعات والمشروعات بتجيب فلوس بيطلع منها الفايدة اللي يتفق عليها الطرفين، فإذا كان الطرفين موافقين وبرضاهم، إيه المانع؟

- التعاملات مع البنوك لا يوجد فيها مكسب وخسارة، فهي بذلك ليست تجارة؛ لأنه لا يشارك في الخسارة، الفائدة هنا ثابتة ولذلك هي حرام.

انتهى البرنامج بانتهاء الفقرة، ونزل تِتْر النهاية.

لَقَت الحلقة انتشارًا واسعًا في الشارع وعلى صفحات التواصل الاجتماعي بين مؤيد ومعارض لآراء الشيخ إلا أن الكل أجمع على احترام الشيخ جابر .

توجه جابر لمسكنه بالحي الشعبي ليجد الشيخ عبيد في انتظاره يقدم له التهاني على الحلقة الرائعة بالبرنامج والتي حازت على انتشار واسع فور انتهائها، أكمل الشيخ عبيد حديثه وأعرب عن قلقه فقال:

- لكن احذر يا صديقي.

تساءل جابر في اندهاش.

- مِمَّ احذر؟

- احذر من نفسك على نفسك، أن أشدَّ عداوة للإنسان على الإنسان هي النفس فهي أكثر عداءً له من الشيطان، أن الشيطان يحاول، ثم يَمَلُّ ويبتعد، أما النفس فلا تَكِلُّ ولا تَمَلُّ قال تعالى: {... أن النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ...} فكن يقظًا لا تغرك نفسُك، ولا تفرح بها فلا تنتصر عليك ولا تعطي للشيطان فرصةَ النَّيْل منك.

أخذ الشيخ جابر كلام صديقه بعين الاعتبار ودخل حجرته ليستريح من عناء يوم طويل. استمرت الحلقات واللقاءات واكتسب جابر محبة الشارع واهتمام رواد التواصل الاجتماعي ودُعِي إلى مؤتمر ديني يناقش فيه أمورًا فيها خلاف بين العلماء وسأله أحد الصحفيين:

- ما رأي الشيخ في العِلمانية؟ وهل الإسلام يتعارض مع الفكر العلماني؟ وهل الشخص العلماني كافر من وجهه نظركم؟

- العلمانية فِكْرٌ، أما الإسلام فهو دين ولا يجوز مقارنة ما هو أدنى بما هو أعلى، فالدين الإسلامي دين سماوي أنزله الخالق سبحانه وتعالى على نبينا محمد ﷺ ليس لنا فيه إلا أن نقول ما يُرضي الله، أما الفكر العلماني فهو فكر إنساني وضعه العقل البشري يمكن فيه القول بالانتقاد والرفض أو القبول، ومن هنا لا نستطيع أن نضع العلمانية مع الإسلام في كفتين متوازيتين ونقول بوجود تعارض بينهما ،وحتى لا نُضيع الوقت في هرتلات فارغة علينا توضيح المقصود بالعلمانية بأنها: فِكر للدولة وليس الأشخاص، فيأتي تعريف العلمانية: بأن تكون الدولة على مسافة

واحدة من كل الأشخاص دون تفرقة تبعًا للدين أو اللون أو الجنس، ومن هنا نقول: أن هناك شخصًا مسلمًا يعيش في دولة علمانية ومسيحي في دولة علمانية وآخر بوذي أو يهودي أو حتى مُلحد في دولة علمانية، هنا الدولة تتعامل مع الكل سواء دون تفرقة، ما يجوزُ يجوزُ للكل وما لا يجوز لا يجوز على الكل، أما الأشخاص فكلٌّ على حسب عقيدته يمارسها بحرية في نفس الدولة، وإن وفَّينا الإسلام حقه فنقول: أن الدين الإسلامي جاء ليعم السلام والمساواة والحرية بين كل أفراد الشعب، فلا يوجد تفرقة في الإسلام على أساس الدين أو اللون أو الجنس، وقد حفظ الإسلام حقوق أهل الكتاب ووصَّى النبي ﷺ على مراعاتهم، فقالﷺ(من آذى ذميًا فأنا خِصْمه ومن كنت خِصْمه، خَصَمته يوم القيامة) وضمن لهم الحرية والرخاء، والاستقرار والأمن ومعاملتهم كما يُعامِل المسلمين في المنطقة .

تابع الصحفي:

- على أي أساس تقول: أن الإسلام جاء ليضمن الحرية للجميع وقد أباح الرِّقَّ بل وأباح للرجل أن يجامع أَمَته سواء أَكان له زوجة أو زوجات أم لم يكن متزوجًا؟

- الإسلام لم يُشرِّع الرق بل وضع تشريعاتٍ للتعامل مع هذه الظاهرة لتجفيف منابعها، وجاءت الآيات تراعي ظروف المجتمع آنذاك فكان الأمر بالرحمة والرفق حتى في العقوبة، وجاء هذا المنحى التشريعي في التعامل مع ظاهرة الرق هو المُعتبر في حال انتكست البشرية وعادت لتشريع الرق من جديد، وهذا غير مستبعد مع حضارة مادية لا يحكمها سوى قانون المنفعة المادية، فيرجع العمل باتجاهين؛ التعامل الواقعي مع الرق بتطبيق أحكامه، والدفع باتجاه إلغائه وتجفيف منابعه، ومن هنا نستطيع القول بأن الإسلام قد رفض العبودية والتمييز فاعتبر

القرآن الحرية هي الأصل في الإنسان بل جاء الإسلام ليضمن لهؤلاء حقوقهم فهو دين جاء لسلامة البشرية وتطبيق المساواة والعدل والحرية وهذا ما يطالب به العلمانيون في بلادهم، فأي تعارض في ذلك مع الدين الإسلامي؟

احتدّ النقاش وقام أحد الجالسين قاصدًا احراج الشيخ، قال:

- يا شيخ، كيف تقول: أن الدين الإسلامي الأصل فيه المساواة وقد جعل للرجل كلَّ شيء؛ فقد أعطى له القِوامة على المرأة مهما كانت درجاتها العلمية بل وأوصى بضربها أن لم تُطع زوجها كما أوصى بالضرب للطفل على تركه للصلاة والقتل للمرتد، أليس في كل هذه الأحكام تقييد وتسخير؟

- القِوامة هنا لها مفهوم يجب توضيحه أولًا، فهي ليست متعةً للرجل وإنما هي تكليف وإلزام، فالمولود يُولد ذكرًا أو أنثى، يظل الذكر ذكرًا حتى وإن بلغ، لا يُطلق عليه لفظُ رجلٍ إلا بعد أن يطبق ما ألزمه الله به من تكليف برعاية بيته وإعالة أسرته ومراعاة النساء من أهل بيته، ومِن هنا وجبتِ الطاعة من الزوجة له؛ أي أن لفظ رجل يأتي متأخرًا بعد جواب التكليف المكلَّف به، وتنفيذ أحكام القِوامة التي أمره الله بها، وبشكل اكثر توضيحًا، نقول إن الوصف بكلمة رجل ليست لكل الذكور ولكن لمن يلتزم بما أوجبه الإسلام عليه وألزمه به ناحية أهل بيته من النساء فتكون الطاعة واجبة عليهن له، وإن كان الإسلام قد شرَع الضربَ حين المعصية فهو أيضًا أوصى بعدة خطوات قبل الضرب للتعامل مع الحالات الشاذة فالمرأة العاصية أمر بالنصح والإرشاد والصبر عليها ثم الهجر وآخر شيء الضرب، والضرب هنا المقصود به: الضرب غير المبرح، وأما الطفل فجاء

بتعليمه الصلاة من سن سبع سنوات والضرب عند العاشرة، ضربًا تأديبيًا غيرَ مبرحٍ.

المتسائِل:

- يا شيخ، هذا فيه إهانة وتقييد للحرية.

علا صوت الشيخ، وقال في عصبية:

- الحرية ليست معناها العصيان، والدين واضحةٌ أحكامه، فإذا أعرض البعض عنها وَجَبَ تهذيبه إلى أن يعود لصوابه.

بدأت همهمة خفيفة في القاعة وأعرب البعض عن قلقه، وقف أحد الحضور يقول في تهكُّم:

- في الدول العلمانية يستطيع الأشخاص التعبير عن اختلافاتهم، أين نحن من تلك الدول؟ في مجتمعاتنا الاختلاف جريمة تصل عقوبتها حد القتل.

- لكل مجتمع قيمه وقواعده وعاداته وتقاليده المُتعارَف عليها بين أفراده، ومجتمعنا مثله مثل أي مجتمع له قواعده وأعرافه ومعتقداته، فإذا شَذَّ الشخص عن المتعارف عليه ومثَّل اختلافه تهديدًا للمجتمع يُعَدُّ من قبيل المعصية ولا حرية له في ممارسة اختلافه، خاصة إذا كان يعارض ويخالف معتقدنا الديني، حتى الدول التي تدَّعي الحرية الكاملة حريةُ أفرادها مقيدةٌ بالقوانين والقواعد المنظِّمة للحياة بداخلها وعلى

الأفراد الالتزام بها وإلا تعرضوا للعقاب، فحريتك تأتي بعد التزامك بقواعد وقوانين المجتمع الذي تعيش فيه.

المتسائِل:

- هناك حالات تقبَّلتْها المجتمعات بالخارج وتعايشتْ معها وهي مخالفة للطبيعة وعلى الرغم من ذلك دافعت عنها وطالبوا بحقوقهم وأعطت الدول لأصحابها حقوقًا ومزايا، أما هنا في مجتمعاتنا المُغلقة ما زالت تلك الاختلافات تعد جرائم يحرِّمها الدين وتجرِّمها الدولة.

جاء رد الشيخ مُحتدًّا، وقد تملكه الغضب:

- كل ما يخالف الطبيعة فهو حرام، هذا شيء غير قابل للنقاش.

المتسائل في عصبية:

- يا شيخ، هناك فجوة كبيرة بيننا وبين هؤلاء؛ من تطلقون عليهم أنهم كفرة، هناك العدل والمساواة، هناك الحرية، هناك أستطيع أن أجهر باختلافي أما هنا فلا وإلا تعرَّضتُ للتنكيل والإهانة، الناس في بلاد المسلمين مُقيدون بأحكام مر عليها 1400 عام لا تناسب العصر وتقدُّمه، وهذا وراء ما نحن فيه من تخلف .

عَبَّر الشيخ عن رفضه وأخذ النقاش منحرفًا حادًا، مما زاد من غيرة الشيخ على الدين وسخطه على المتسائل وعلا صوته، قال في عصبية بالغة:

- الجهر بالمعصية ليس حرية، وإنما هو جريمة وجب عليها العقاب.

توترت القاعة وعَلَتِ الأصوات وبدأ المنظِّمون في تهدئة الحضور وتكملة باقي فقرات المؤتمر. تتساقط الأسئلة على الشيخ كالسَّيْل وهو يجيب في حزم حتى سأله أحدهم:

- ما قولك في شعب مغلوب على أمره لا يستطيع تغيير ما بنفسه حتى يغير الله ما به؟

- حباهم الله بعقول وأدواتٍ وأسبابًا يستطيعون بها أن يتحكموا فيما يريدون من جلْب خير أو دفْع شر، وهم بهذا لا يخرجون عن مشيئته كما قال تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أن يَسْتَقِيم * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أن يَشَاء الله رَبُّ الْعَالَمِين}. يومًا ما مرَّ حكيمٌ بِعَرْبجيٍّ يُمسك سوطًا ويضرب به حصانه بشدة ويستسلم له الحصان في ذل وانكسار قال الحكيم للحصان: لو أنك تعلم ما بك من قوة ما رضيت الذل والهوان، لو تعلم الشعوب ما بها من قوة ما رضيت الذل من حكامها، والآن وبعد أن قام الشعب بثورته العظيمة وعلم بقوته وقد تغيرت الموازين، وترك الناس ما كانوا قد أَلِفوه لسنوات من ضعف وصمت، ولكن الخوف من العودة للوراء يطاردنا، فعلينا اليقظة الدائمة وعدم الوقوع في فخ الاستسلام الذي يعتقد البعض أنه السلام، فالعار كل العار على شعب آثر الصمت ورضي بالظلم والقهر وتعايشوا معه وأَلِفوه على أنه هو الأصل، فهذا وإن دل فيدل على خزي وضعف، عار على من ارتضى الظلم على غيره بحجة أنه لم يَنَلْ منه، عارٌ على مَن شاهد قهر أخيه دون أن يُوقفه، عار على من اعتقد أن في صمته السلام، يوجد من بين هؤلاء من رفض، لكنه وجد في الصمت أمانًا له ولأسرته، ومنهم من لم يستطع السُّكات لكنه يخسر حياته كاملة فيصبح مهددًا مطاردًا دائمًا، وينتهي به الحال أما

هاربًا خارج البلاد أو في السجون يُلاقي العذاب، ولكن وإن نظرنا من بعيد نَرَ شعاعًا مضيئًا في آخر الطريق، فالتغيير حتمًا سيأتي، أن لم يأتِ اليوم سيأتي غدًا مع تتابع الأجيال وتطور العقول، حتمًا ستتغير الأوضاع للأفضل حتمًا سترفض الأجيالُ القادمة فكرة القبول بالمفروض عليهم، ولن تقبل إلا بما تفرضه هي على أنظمتها، يومًا ما ستنعم الشعوب بحياة كاملة دون خوف من سوط يسلخ جلودهم .

انتهى المؤتمر وقد خرج الشيخ عمَّا يُرضي الأجهزة الأمنية التي كانت متابعة لكل شئ يدور به.

مرت الأيام وتتوالى الأحداث، وتثير آراء الشيخ الشارع وأروقة المثقفين وما زال لديه القدرة على إشغال فكر أساتذته لعدة أيام بمسائل خلافية، وأثناء ما كان الشيخ متوجهًا إلى شقته قابَل في طريقه الشيخ صبحي السريع الذى لم يلتقه منذ أن كان في الميدان أيام الثورة، سلم عليه الشيخ صبحي بحرارة وهنَّأه على المؤتمر الذي ذاع صيته وانتشرت تداعياته عبر القنوات الفضائية وأحاديث المثقفين والعامة، وسأله:

- كيف حالك مع الله؟

أجابه:

- الحمد لله؛ أقيم فروضي وأحفظ نفسي وأبلِّغ علمي ولا أخاف في الله لومة لائم.

افترق الصديقان واتجه جابر لشقته يقضي الليلة أمام شاشات القنوات الفضائية يطَّلع على تداعيات المؤتمر ومناقشة وما دار به، ليُفاجَأ بغضب كبير من المثقفين والحُقوقيين الداعين للحرية، وانتقاد لاذع لآراء الشيخ بالمؤتمر، أغلق التلفاز

ليتابع مواقع التواصل الاجتماعي فيجد خلافات كبيرة بين الشباب فيما ورد في المؤتمر؛ خناقات وسِباب ألقتِ الضوءَ على ما يعاني منه المجتمع من تشتُّت وجهل وتضاد في الفكر، أغلق الشيخ مواقع التواصل وولج لفراشه يحاول أن يُغمض عينيه لينام قليلًا قبل صلاة الفجر.

وفي اليوم التالي توجه الشيخ للاستوديو لحضور الحلقة الأسبوعية من برنامجه الديني ليُفاجَأ بشيخ صديق سيحضر معه الحلقة.

لم يكن يعرف الشيخ جابر الشيخ الصديق عن قرب، ولكن كان يراه من وراء الشاشة في برنامجه الأسبوعي على القناة الفضائية الذي يُديره بنفسه ويأخذ طابع برامج التوك شو.

رحبت المذيعة بالشيخين وبدأت في توجيه الأسئلة، ويجيبها الشيخُ جابر بردود قطعية مُدعَّمة بالآيات والأحاديث حتى جاء السؤال عن الخمر وأجاب جابر:

-حرَّمها الله بالتدريج، رِفقًا بالمسلمين في بادئ الأمر؛ لأنهم كانوا مُولعين بها فمنعهم عنها عندما يأتي وقت الصلاة، ثم بعد ذلك حرَّمها تمامًا، فهي حرام حاملُها وشاربُها وساقيها فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون}، وبذلك تمَّ تحريمها تحريمًا باتًّا فشُربُها حرام وبيعها حرام .

المذيعة:

- ماذا تقول في دخول الخمور وتقنينها في البلاد المسلمة؟

- إثم كبير، فعلى الدول المسلمة منع ما حرمه الله وعدم السماح بدخوله للبلاد .

هنا خرج الشيخ الصديق عن صمته معترضًا:

- إزَّاي يا شيخ جابر تحرم دخول الخمور، وتُؤثِّم على الدولة تقنينها وعندك في بلادك المسلمة مَن هم غير مسلمين وشريعتهم تبيح لهم الخمر؟

- هذا ما أمرنا به ديننا، ولا أخالف ديني لإرضاء أحد.

- ومَنْ ولَّاك على رقاب العباد حتى تمنع عنهم وتُبيح؟ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِر.

- أراني لم أَتسلَّط على أحد، ولكن أحمي شريعتي؛ فأنا هنا أعتبر نفسي حامي الشريعة من العبث.

-أيوة، هنرجع بقى لكهنة المعبد، يا أخي كيف؟ يقول الله: [وأطيعوا أولي الأمر منكم] .

تقطع المذيعة الحوار القائم والذي كاد أن يتحول لشد بين الشيخين، موجهة السؤال لجابر:

- يعني لو الحاكم أراد فتواك في الخمر، بماذا ستجيبه؟

- سوف أقول له: إنها حرام .

في غيظ، رد عليه الشيخ الصديق:

- إذًا أنت تريد تغيير نظام الدولة وتفرض رأيك على الحاكم وتخالف قانون الدولة! الدولة التي أنت على أرضها.

- لم أقل أني أريد تغيير نظام الدولة! قلت بالنص أن كل ما يخالف الشريعة فهو حرام.

- إذًا أنت لا تعترف بدستور دولتك!

- أعترف به، لكن ليس فيما يخالف الشرع.

- نحن نعيش على أرض هذه الدولة يربطنا ميثاق واحد وهو الدستور، فإلى أي قانون تحتكم الدستور أم الشريعة؟

- أُعلي شريعة ديني طبعًا وأي قانون يُخالفها لا أعترف به.

- الدستور هو ما يحكمنا ويجب تقديمه على الشريعة، أنت بذلك ترفض الاحتكام للدستور وتفرض رأيك على الحاكم .

- لا أفرض رأيي، ولكن إذا أراد النصيحة أعطيها له، يعمل بها أو لا شيء لا أتدخَّل فيه .

- دولتك لها رئيس وقانون، أَتُخالف القانون؟

إذا كان يخالف الشرع.

- إذًا أنت تريد الخروج على الحاكم أنت تريد قلب نظام الحكم.

أجابه الشيخ وقد بدأ في فقد صبره:

- أنا لا أريد شيئًا، ولكن أقول ما يرضي الله فقط .

انسحب الشيخ جابر من اللقاء على الهواء مباشرة، وذهب تاركًا الاستديو وهو منفعل.

اتجه لمسكنه بحي الحسين، دخل غرفته يخلع العِمَّة والجُبَّة والقُفطان، استلقى على فراشه وأغمض عينيه يحاول النوم حين دق جرس الباب تعجب الشيخ! فمن ذا الذي يدق عليه باب شقته في هذه الساعة المتأخرة؟ أيمكن أن يكون الشيخ عبيد قد عاد من القرية فهو في زيارة للأهل منذ عدة أيام؟ وإن كان هو لِمَ لا يستخدم مفتاحه بدلًا من أن يُقلقه؟ فتح الشيخ الباب في حذر ليُفاجَأ أمامه بوجه فائق الجمال، ذي شفاة غليظة وعينين واسعتين، وملابس تفضح أكثر مما تستر، امرأة في كامل أنوثتها تسند بيدها على الدرفة المغلقة من باب الشقة تقف باعوجاج وتتلوى، لَمْ يأذن لها الشيخ بالدخول، ولكنه كان في حالة من الدهشة جعلته لا يقاوم، زَجَّت به المرأة للداخل فتراجع للخلف وأغلقت هي الباب وإذ بها تنقضُّ عليه، لم يَعِ الشيخ ما يحدث ولم يتجاوب معها في البداية ولم يستطع المواجهة فأغلق عينيه، ليُلقي بنفسه داخل إعصار قوي لا يستطيع الإفلات منه، تملكه الإعصار يعلو به ويهبط وما زال الشيخ مُغمِضًا عينيه ينتظر أن تهدأ العاصفة، تأتيه خيالات القرية التي عاش فيها طفولته وصباه وصوت أبيه يلقي عليه قيم القرية والأخلاق وأمة تربت على كتفه وتمسح بيدها أعلى رأسه، يأتيه صورة الكُتَّاب وسيدنا والأطفال وهو بينهم يتلو القرآن، يمسك بلوحه الخشبي والريشة يغمزها في الحبر، كل ذلك يقع في طريق الإعصار الذي يضرب بشدة فيلقي بهم بعيدًا، تتشوش الصورة ويفتح الشيخ عينيه فلا يستطيع المواجهة يغمضهما ثانية ليرى صباه هو وصديقه الشيخ عبيد بالمعهد الديني بقريته، تأتيه خيالاتٌ من حياته أمام عينيه يرى نفسه

بالعمامة والجُبَّة والقُفطان أمام جامعة الأزهر وبجانبه الشيخ عبيد يرى الشيوخ وأساتذته والأرفف محمَّلة بكتب الفقه والشريعة ومراجع تعاليم الدين التي تعترض طريق الإعصار فيعصف بكل شيء وتتناثر الكتب في الفضاء ويُلقَى بها بعيدًا عن مساره، وينال الإعصار من الشيخ، فيأخذه بقبضته حتى أصبح في مركزة يدور به يعلو ويهبط ينجرف يمينًا وشمالًا يرتطم بالأشياء فيدمرها إلى أن ألقى بالشيخ بعيدًا فارتطم جسده بالأرض، فتح الشيخ عينيه، أحس برعشة وارتجف جسده بشدة وتصبب عرقًا ثم فقد الوعي.

أفاق الشيخ ليجد نفسه بفراشه وأمامه الشيخ عبيد يحمد الله على سلامته، قال إنه عندما جاء من القرية في تلك الليلة، منذ ثلاثة أيام، وجده مُلقَى في الصالة على الأرض يرتجف بشدة ويتصبب عرقًا وفي حالة إعياء شديدة، أخذه لفراشه وداواه حتى زالت الحُمَّى، سأله الشيخ عبيد عن ذلك الإعصار الذي كان يتحدث عنه في تخاريف مرضه، انتبه جابر وخاف أن يكون قد تحدث بأكثر من ذلك وهو محموم لا يعي، إلا أنه بدا على الشيخ عبيد أنه لا يعرف شيئًا، قال:

- أعلم أن المؤتمر لم يمرَّ بسلام والهجوم عليك كان شرسًا مما جعلك لا تتحمل ومرضت، قلقت عليك في هذه الليلة، انتظرت بزوغ الفجر وأخذت أول قطار من البلدة للقاهرة لأجدك مُلقى على الأرض في حالة إعياء.

استمرت الهجمة على الشيخ في القنوات الداعمة لأجهزة الدولة حتى جاء ميعاد البرنامج الأسبوعي وعندما دخل الشيخ الأستوديو فوجئ بشخص يسلم عليه ويريد التحدث معه قبل الحلقة وعرَّف نفسه بأنه: أحد رجال الدولة المخلصين.

عشر دقائق كانت كافية لإيصال ما تريده الأجهزة الأمنية من الشيخ، بدأها الرجل بالحديث عن الصعاب والتحديات التي تواجه الدولة في تلك المرحلة الانتقالية وأوصى بتهدئة الرأي العام وعدم الخوض في أمور قد تثير الشعب على الدولة ونظامها، أنهى الرجل كلامه ببعض التلميحات فأشعل سيجارًا وأسند ظهره للوراء قليلًا، وقال:

- إن كانت الأجهزة تُخطئ أحيانًا فذلك وارد وأدينا بنصلح.

ونفخ سيجارة في وجه الشيخ واستطرد قائلًا:

- مافيش حد فينا معصوم من الخطأ يا مولانا والَّا إيه؟

اكتفى الشيخ بالإيماءة برأسه وتذكر ما حدث ليلة المؤتمر والمرأة على باب شقته، وكانت عيناه تنظران للأرض أسفًا على نفسه، وقد فطن المقصود .

بدأت فقرات البرنامج، الفقرة الأولى وحديث الشيخ تفتتحها المذيعة بسؤال:

- يا مولانا، في الآونة الأخيرة كرَّس المسلمون جميع أوقاتهم وأفعالهم لما ينفع في اليوم الآخر مما جعلهم ينعزلون عن العالم ولم يشاركوا فيما فيه من نفع للبشرية فأصبح العالم الإسلامي في عزلة عن العلم والبحث والتكنولوجيا، فما رأيك؟ وكيف ندفعهم للمساهمة فيما فيه نفع للمجتمع؟

قال الشيخ بعد الاستعاذة من الشيطان والتسمية بالله:

-الإسلام دين دنيا وآخرة، فجاء لينظم الحياة بأكملها وقد جمع بين حق الله وحق العبد وبين أمر الدنيا وأمر الآخرة، وادِّعاء أن الإسلام جاء بالرهبانية ادِّعاء باطل بل أن الرهبانية دين النصارى الباطل...

انقطع البث وتوقف البرنامج لدقائق تتحدث فيها المذيعة مع الشيخ برفق تسمع ما يُمْلَى عليها من داخل حجرة التحكم، وتحثُّ الشيخ على الابتعاد عن مهاجمة الأديان الأخرى حرصًا منها على إتمام الحلقة دون مشاكل.

عاد البرنامج للشاشة وبدأت فقرة أسئلة المشاهدين؛ الاتصال الأول:

- يا سيدنا، أنا امرأة أبلغ من العمر أربعين عامًا، متزوجة وأعمل في مكان مرموق لم أكن أرتدي الحجاب لكني ارتديته منذ وقت قريب فقد بلغت من العمر منتصفه وأخاف أن أقابل الله بدونه، ولكن بحكم عملي الذي يحتِّم عليَّ الاهتمام بمظهري، آخذ زينتي عند الخروج للعمل، وقيل لي أن هذا لا يتناسب مع ارتدائي للحجاب فما حكم الدين وماذا أفعل؟

بشيء من المهادنة، جاوبها الشيخ:

- إن الأصل في المرأة التجمل، فالتتجملي.

ابتسمت المذيعة، قالت:

- شيخنا انهاردة راضي عن الستات، الاتصال الثاني:

- يا مولانا، أنا شاب في مقتبل الحياة، أخذت قرضًا من البنك لأبدأ مشروعًا صغيرًا، يتراكم عليَّ فوائد شهرية لا أستطيع دفعها، ولا أشعر بربح مشروعي فأنا دائمًا متعسر، هل ذلك غضب من الله بسبب القرض؟

- ما ذنب القرض؟! هذا ذنبك أنت، أنت من لم تستطع إدارة مشروعك؟

شعر الشيخ بالتوتر، أزاح عنه عرق جبينه بمنديل في يده، لاحظت المذيعة توعكه وعرضت عليه الخروج لفاصل فاستجاب، توقف البرنامج لدقائق تطلب المذيعة كوبَ من الماء للشيخ الذي اعتذر بعدها عن إكمال الحلقة .

اعتذرت المذيعة للمشاهدين وأعلنت عن توعك الشيخ صحيًّا وأنهت الحلقة قبل ميعادها.

لم يتوقف جرس المحمول عن الرن ولكن جابر امتنع فلم يرد على أيٍّ من الاتصالات الواردة تسأل عن صحته. حثه الشيخ عبيد على الرد على الناس ولكنه رفض، حاول الشيخ عبيد معرفة ما حلَّ بصديقه لكنه أبى أن يتحدث مع أحد، ظل جابر في شقته لا يخرج منها ولا يقابل أحدًا بها حتى جاءه ذلك الرجل الذي قابلة في الأستديو منذ عدة أيام وعرَّف نفسه حينها بأنه: أحد رجال الدولة المخلصين، لم يكن الشيخ عبيد بالشقة حينها، دخل الرجل وجلس دون أن يأذن له جابر، قال أنه جاء ليسأل عن صحته فمنذ أن كان في الأستديو ذلك اليوم وشعر بتوعك لم يخرج ولم يرد على المحمول مما اضطره للمجيء بنفسه للسؤال عليه، قال الرجل:

- كيف حالك يا مولانا؟

- بخير.

- تمام كويس، واحنا عايزينك بخير دايمًا.

أنتم! من أنتم؟

- نحن رجال الدولة المخلصون الحريصون على سلامتها وأمنها، ألم أعرفك بنفسي من قبل؟

- ماذا تريدون؟

- نريدك معنا.

كشافات وإضاءة عالية واختبارات للصوت، ديكور فخم يقف الشيخ في منتصفه مرتديًا بدلة وجرافات وشعره منمق لأعلى ينظر للكاميرا، يقدم برنامجه الجديد الذي يديره بنفسه ويأخذ طابع برامج التوك شو .

صفق الجمهور الذي أُختير بعناية لحضور الحلقة وبدأ الشيخ جابر حديثه بالصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم، ثم قال:

- سأروي لكم قصة قصيرة لعل فيها عبرة لكم؛ في يوم من الأيام جاء أحد العامة لحكيمٍ في قصره يشكو من التعاسة، ولكي يعلِّمه الحكيم معنى السعادة أعطاه ملعقة بها نقطة زيت وقال له:

- اذهب وَطُفْ بهذه الملعقة حول سور القصر وارجع لي دون أن تسقط منك نقطة الزيت بداخل الملعقة .

أخذ الرجل الملعقة وطاف حول سور القصر بكل حرص ورجع للحكيم والزيت ما زال في الملعقة، سأله الحكيم:

- هل رأيت الزهور بجمال ألوانها حول سور القصر؟

قال الرجل:

- لا.

سأله:

- هل سمعت زقزقة العصافير فوق الشجر؟

قال الرجل

- لا.

- ولم تَرَ الفراشات تطير، ولم تشاهد الأولاد يلعبون، ولم تَرَ الحديقة الغنَّاء بالخارج؟

قال الرجل:

- لا.

سأله الحكيم:

- لماذا؟

قال، لأنني لم أرفع عيني عن ملعقة الزيت خشيةَ أن يسقط مني فلم أَرَ شيئًا مما حولي.

قال الحكيم:

- إذًا، اذهب وَطُفْ حول السور بملعقة الزيت، ولكن هذه المرة شاهد كل ما أخبرتك عنه وعُدْ لي ثانيةً.

ذهب الرجل وطاف حول السور وشاهد كلَّ هذا الجمال ثم عاد للحكيم الذي سأله:

- ماذا رأيت؟

انطلق الرجل يحكي عمَّا رأى في سعادة وانبهار؛ قال:

- رأيت الحديقة الغناء بالخارج وألوان الزهور وفراشات تطير وسمعت زقزقة العصافير والأولاد يلعبون.

نظر الحكيم للملعقة فلم يجد نقطة الزيت فسأله:

- وأين الزيت؟

قال الرجل:

- سقط مني في الطريق، حين كنت أستمتع بما أراه به.

ابتسم الحكيم وقال:

- هذا هو سر السعادة يا بني، فنحن لا نرى الكثيرَ من نعم الله حولنا؛ لأننا نشغل أنفسنا بهمومنا وصغائر ما في نفوسنا، نقطة الزيت تلك هي الهَمُّ الذي يشغلك عن رؤية النعم من حولك، السعادة يا بني هي أن ترى النعم وتسعد بها وتنسى ما أَلَمَّ بك من هموم فيسقط الهم في الطريق.

قال الشيخ بعد أن أنهى حكايته:

- هكذا الكثير منا الآن لا يرى النعم حوله ويركز فقط على صغائر الأمور وينفخ فيها ليجعل منها بالونًا كبيرًا قد تنفجر في وجهه، ألا يكفي أنك تعيش في دولة مستقرة لا حروب بها؟ ألا يكفي أنك تعيش على أرض بلادك لست لاجئًا في بلد أخرى كغيرنا من الشعوب التي دُمِّرت بلادهم؟ أقول لكل مَن سوَّلت له نفسه تدميرَ هذه البلد: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}. ستظل هذه البلد آمنة كما ذُكرت في القرآن الكريم مهما حاول العابثون العبث بها.

خرج فاصل، تناول به جابر مشروب ساخن وأعاد الماكير تنميق شعر رأسه، ثم عاد البرنامج بفقرة أسئلة المشاهدين.

الاتصال الأول:

- يا سيدنا، أنا أسكن في منطقة مُهدَّدة بالإزالة لاعتراضها أحد مشروعات الدولة الكبرى، عرضت الحكومة علينا تعويضًا لا يسمح لي بشراء مسكن ملائم، أو أن يُفرَض عليَّ السكن بعيدًا عن المدينة، وذلك يسبب لي عناء شديد، فبُعد السكن يرهقني كثيرًا ويرهق أبنائي الذين هم في مدارس وجامعات حكومية بقلب القاهرة، فليس بمقدوري أن الحقهم بمدارس وجامعات خاصة، كما أن عملي بالقرب من منطقتي الحالية والانتقال لسكن بعيد يرهقني جسديًا وماديا فأنا على قد حالي و...

قاطعة جابر يطلب منه العجلة في طرح السؤال، باديًا تململًا:

- ما هو سؤالك؟

- لقد سمعت عن عمارة الزمالك التي تضررت جراء تنفيذ خط مترو بجانبها وشاهدت غضب الإعلام بسبب تأزُّم سكانها، وعلمت بما قامت به الدولة نحوهم من دفع تعويضات مناسبة تمكنهم العيش في مكان مماثل لمسكنهم بالزمالك حتى لا تتضرر معنوياتهم إلى أن تقوم الدولة بترميم ما أفسده الحفر بالمبنى، المساواة في الظلم عدل يا سيدنا، أين ما اتفقنا عليه أيام الثورة؟ لقد كنت من هؤلاء الذين ناموا بجنازير الدبابات ثمانية عشر يومًا أملًا في تحقيق العدل والمساواة، أريد أن ينظر الإعلام إلينا بعين الاهتمام، وتنظر الدولة لنا بعين الرحمة، تلك التي نظرت بها للأثرياء من سكان عمارة الزمالك.

جاء رد جابر منمقًا ملائمًا لحلته الجديدة، قال:

- دعنا نتفق أن المساواة ليست هي العدل؛ فإذا نظرنا لشخصين جائعين أحدهما لم يأكل منذ يومين والآخر أكل وجباته بانتظام وينقصه فقط وجبة العشاء وقدمنا الطعام بكميات محددة وساوينا بينهما في الكميات وانتظرنا حتى فرغت الأطباق لنجد أن الأول ما زال جائعًا، أما الثاني فشبع فهل هذا عدل؟ فإن حاولنا إرضاء الشخص الأول بأن ضاعفنا له كمية الطعام ووجدنا أنه ما زال جائعًا، فإنَّ قدمنا له المزيد سيصاب بالتخمة ويمرض ونكون بذلك أضررناه بغير قصد منا، خَلَقنا الله طبقات وقُدرات وكل حسب قدراته يُرزق، الدولة أدرى منَّا في فَهم وتحديد ما يحتاجه مواطنوها فتحدد كمية الاهتمام والرعاية الخاصة بكل مواطن والتي تراها مناسبة له- يتابع الشيخ- ما يمكن يا أخي سكان الزمالك يتأثروا نفسيًّا بما يمثل خطرًا شديدًا عليهم لو لم تضعهم الدولة في نفس مستواهم الذي هم به بالزمالك حتى ترميم مسكنهم، يمكن ذكرياتهم في ذلك المكان تؤثر عليهم بالسلب إذا انتقلوا

لمكان أقل، أليس من الممكن أن تتأثر مراكزهم الاجتماعية وأعمالهم بما يمثل خطرًا داهمًا عليهم بل وعلى اقتصاد الدولة كلها؟ يمكن أنت ربنا ادّاك القدرة تستحمل الشقا وحرمهم من هذه القدرة على التحمل، شُفت بقى أنت متحامل عليهم ازَّاي؟

أغلق الخط دون أن ينول المتصل فرصة للرد، ويكمل الشيخ حديثه للمتابعين: أرأيتم؟!هذا هو ما أحدثكم بشأنه من أول الحلقة، فحين تنظرُ للشيء في يد غيرك يجلب عليك التعاسةَ ويجعلك دائمًا ناقمًا على عيشتك غير راضٍ بما قسمه ربك لك، انظر للنعم التي أنعم الله بها عليك وبلاش تقول اشمعنى دا معاه حته زيادة عني، ما يمكن يا أخي ربنا معوضه عن شيء ما ينقصه في صحته أو في أولاده أو شيء ما غير محمود تعرض له في حياته، أنت ما تعرفش ربنا اخد منه ايه وادهولك...

توالت الاتصالات وتكررت الحلقات والشيخ لا يقول إلا ما يُمْلَى عليه وبات نجمًا من نجوم الفضائيات، وانزاح عنه الشباب مرة تلو أخرى، بعد أن بعُد بأرائه عن الشارع ومالت مواقفه واعوجَّ حديثه، وفَقَدَ احترام رواد التواصل، وانتشرت النكت والسخرية منه حتى أصبح تجاهله هو أكثر ما يتمناه .

كان صوت داخله يناجيه، يعاتبه ويواسيه:

- انهض يا جابر، لست أنت السبب فيما آلت إليه الأمور بالبلاد فأنت انسان ضعيف لا تفعل إلا ما يُطلَب منك...

- ولكني أداة في أيدي هؤلاء الطغاة سوف يحاسبني الله كما سيحاسبهم.

- أنت تفعل هذا إنقاذًا لنفسك منهم، الله يعلم كل شيء، أنت لم تفعل شيئًا فلستَ أنتَ من قتل الشباب في المظاهرات، ولا أنت من ألقى بجثثهم بجانب صناديق القمامة، ولا أنت من قُمت بإحراقهم في الميدان، لست أنت من هدم الثورة، بل هم هؤلاء الأغبياء، هم من أداروا ظهورهم للحق بحثًا عن مصالحهم الشخصية، انهض يا جابر لا تَلُمْ نفسك ولا تكترث لشيء سوى نفسك فالكل جبان الآن، كل شيء سيصبح على ما يرام، الله سيصلح كل شيء.

وشيئًا فشيئًا انساق الشيخ وراء المصالح والأموال وبات حديثه أقرب للافتراءات والهذيان، حتى حاد عن الحقيقة برمتها، وأصبح له مسكن خاص في حي من الأحياء الراقية وسيارة فارهة وملابس ثمينة. وفي أحد الأيام وكان الشيخ على علاقة ما زالت طيبة بعض الشيء بالشيخ عبيد، صديق العمر، وكان مازال عند آرائه الثورية، ولم يَحِدْ عن أهداف الثورة في عيش وحرية وعدالة اجتماعية، ودار نقاشٌ طويلٌ بينه وبين جابر في مكالمة هاتفية لم تخلُ من العتاب، استنكر فيها جابر اتصال الشيخ صديقه بالثوار، وخاصة هؤلاء المنتمين للجماعات الإسلامية، أخذًا عليهم بعض الأمور، قال أنهم يَحيدون عن مذهب الأزهر الوسطي ويشوهون صورة الإسلام بالداخل والخارج ولا يريدون إلا النيل بالدولة وكسرها ويسعون للسلطة، فقال:

- اسمع يا أخي، والله إني لأرى الآن أننا كنا على خطأ في مساندة هؤلاء.

أنصت الشيخ عبيد لكلام جابر، ثم عاب عليه ما يقوله في برنامجه اليومي من افتراءات على الثورة والثوار بادي اندهاشًا من كَمِّ التغيير الذي حدث لشخصيته

المسالمة فكان يبتعد عن أي مشكلات، عتب عليه اندفاعه في إلقاء الاتهامات على الفصيل الإسلامي، وتحميلهم كل ما بالبلد من مشاكل وأزمات، وقال:

- يا صديقي، إني لأراك قد حِدتَ عن الطريق الصحيح وأرى نفسك وقد انتصرتْ عليك والشيطانُ وقد قارب على تحقيق مبتغاه، وإني والله لأربَأ بك أن تقع في المحظور، ذلك إن كنت ما زلت لم تقع فيه بالفعل.

انتهت المكالمة، وقام الشيخ عبيد يستعد لنزول مظاهرات دَعَا لها أحد المعارضين من الخارج لتكملة ما بدؤوه في الثورة.

بقى جابر بعد مكالمة الشيخ عبيد جالسًا في مكانة لدقائق يضع رأسه بين كفَّيه ناظرًا للأرض حتى رنَّ هاتفه يُظهر اسم مُعِدّ برنامجه يُبلغه اسم الشيخ ضيف الحلقة، وانتبه لأن بقي من الوقت ما يسمح له بالظهور على الهواء في كامل أناقته.

هندم ذقنه وأخذ دشًا دافئًا وارتدى بدلته الأنيقة والجَرَافات، وساعة يده الغالية وتأهب للنزول، استقلَّ عربته البورش، لم ينس أن يضع نضَّارته السوداء على عينيه، وذهب في طريقه للقناة الفضائية.

وعند صعوده سلم القناة قابل الشيخ صبحي السريع أثناء خروجه منها، وكان ضيفًا لأحد البرامج الدينية بها، لم يمدَّ الشيخ صبحي يده بالسلام، بل ألقى التحية شفاهية بدون روح، وسأله:

- كيف حالك مع الله؟

تلعثم جابر فلم يجد إجابة لسؤاله، انتظر قليلًا، ثم تركه ودخل القناة.

بدأ جابر برنامجه اليومي بالآية الكريمة:

{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَديه رَقِيبٌ عَتِيد}

ثم انتبه لما يُملَى عليه من أحد رجال الدولة العميقة المتواجد دائمًا بداخل حجرة الصوت بالأستديو، تكلم جابر في مقدمة برنامجه عن هؤلاء العابثين بالبلاد ولا يريدون لها الاستقرار، تكلم عن ذلك المناضل الذي أتى من الخارج يهدف لتنفيذ أجندة خارجية يُملي علينا قرارات الخارج، عاب في شكله وطريقة كلامه التي تأتي بتكرار بعض الأحرف بما فيها من تهتهة لا تمكنه من الكلام بشكل صحيح تكلم عن هؤلاء أصحاب الذقون الذين يريدون أن يحكموا بحدود الله الأمر الذي قال أنه لا يرفضه وإنما يرى صعوبةً في تنفيذ أحكامه اليوم، استنفر الشيخ ترويج هؤلاء لفكرة الخلافة الإسلامية ، قال أنهم بذلك يُريدون إرجاع البلاد إلى العصور الوسطى، هاجم ذلك المعارض الذي هو بالخارج يدعو الشباب للخروج عن الحاكم، وأخيرًا دعا للوطن بصلاح الأحوال.

انتهى جابر من مقدمته وأعلن عن ضيفه مُرَحِّبًا به وهو شيخ من أساتذته المسنود من النظام وله دور كبير في إلقاء الفتاوى المثيرة للجدل التي تخدم النظام وتُلهي الشارع وتشغل الرأي العام.

وبعد حديث رأه المتابعون، أجوف مائع من الضيف يدعمه جابر بابتسامة باهتة يهز رأسه بالموافقة على كل ما يقول جاءت فقرة أسئلة المشاهدين، الاتصال الأول:

- أنا في السادسة والعشرين من عمري خلقني الله بجسد أنثوي خارجي، وعندما بلغت الحلم، لم أشعر بنفسي بداخل ذلك الجسد الغريب عني، ففكرت أن أخضع لعملية تحويل جنسي وأقول إنها عملية تحويل ليست تصحيحًا، فكل هرموناتي كانت منضبطة لا خلل فيها، ولكني ومع ذلك لم أشعر بنفسي في الصورة التي صورني فيها الله، وأحسست بروحي تائهة بداخل جسد لا أشعر أنه لي .

انتاب الحضور والعاملين بالاستوديو حالة صمت، حين كان الشاب يُكمل كلامه:

- خضعت لعملية تحويل جنسي بالخارج وعدت لأكمل حياتي في بلدي وسط أهلي. عانيت كثيرًا في بادئ الأمر فلم يتقبلني أحد منهم، وشعرت بالغربة أكثر من ذي قبل.

بكى الشاب بحرقة وهو يقول:

- أنا مختلف ولا أستطيع العيش في مجتمع لا يتقبلني، أعلم أني أخطأت، ولكن ما الحل الآن؟ أشعر بتناقض كبير بداخلي فلا أستطيع ممارسة حياتي الطبيعية في مجتمع لا يتقبل اختلافي، أفكر في لحظة موتي، وأتساءل دائمًا هل سيترحَّم عليَّ أحدٌ؟ الكل ينفر مني حتى مَن كانوا قريبين وأشعر بغربتي بداخلي ولا أجد لها حلًّا.

انقطع الاتصال، وبدأ الشيخ جابر الحديث، قال:

- يا أخي، لقد تحدَّيت الله في صنعه وتريد أن تشعر بالراحة كيف؟ ما قمت به هو مخالف لطبيعتك التي خلقك الله عليها، قلت أنك تشعر بغربتك بداخلك؛ لأنك لست في جسدك الطبيعي وكان من الأفضل بما أن التحاليل الطبية أثبتت أن هرموناتك

سليمة كان عليك أن تكتفي بذلك وتعود لبلادك وتعالج نفسك من أوهامك، فالطب النفسي قادر على معالجة مثل تلك العقبات النفسية، لكن أن تقرر تغيير خلقتك هذا هو سبب ما أنت فيه الآن من عذاب، استغفر ربك وارجع إليه، لعله يغفر لك.

وأثناء الحلقة جاء خبر عاجل؛ ينعي الخبر اثنين أحدهما شاب والآخر شيخ أزهري مات برصاصة في الرأس أثناء فضِّ الشرطة لمظاهرة ضد النظام، تحشرج الكلام في حلق جابر واختنق صوته عندما أُعلن عن اسم الشيخ القتيل وكان هو الشيخ عبيد، نزلت صورته على الشاشة الكبيرة بالأستديو. كادت عين جابر تذرف الدموع التي منعها فتحجرت بمقلتيه عندما سأله الشيخ الضيف:

- هل تعرفه؟

أجابه جابر:

- لا، لم يكن لي علاقة به قط.

أكمل جابر الحَلَقة وفي حلْقة مرارة، وعيناه ترصد تداعيات الحدث بالشاشة، راح يلقيَ اللوم على أصحاب تلك الدعوات الشيطانية، قال أنها تهدف لخراب البلد وتسببت في مقتل هؤلاء الأبرياء الذين سألت دماؤهم في الشوارع نتيجة لدعوات هؤلاء أعداء الوطن، ختم كلامه بالحث على طاعة ولي الأمر ودعَّم قوله بالآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}. نزل تتر النهاية وتوجه جابر إلى دورة المياه، وقف ينظر بالمرآة مسندًا يده بحوض الاغتسال وأطال النظر حتى احمرَّ وجهه وكاد أن يجهش بالبكاء لولا أنقاطعه أحدُ العاملين بالقناة يقتحم عليه المكان ويَحرمه تفريغ ما بداخله من حزن. فوجئ

العاملُ بالشيخ وحاول الحديث معه فجاء صوتُ الشيخ متحشرجًا مخنوقًا الأمر الذي أثار انتباه العامل ليسأله في قلق عن حاله وإذا ما كان يحتاج مساعدة؟ شكره الشيخ وفور خروج العامل، انهمرت دموعه حتى بللت لِحيته، حاول استعادة نفسه قبل أن يخرج من دورة المياه، هدأ قليلًا، ثم غسل وجهه وجفَّفه بمنديل في جيبه وأعاد هندمة شعره ولبس نضارته السوداء، وذهب قاصدًا الخروج من مبنى القناة الفضائية بعد أن أنهى عمله بها ليستقلَّ سيارته البورش الفارهة.

***

النداهة

وقفت دلال حافية القدمين في جلبابها الفضفاض فوق سور برجها العالي ترفع ذراعيها في الهواء تتمايل على أطراف أصابعها يمينًا وشمالًا وشعرها الأسود من سواد الليل يتطاير من خلفها. يرى أهل المدينة دلال فيأخذهم سحر جمالها تراهم سكارى بدون خمر منهم من يتوه عقله فينسى كل ما رُوي عن دلال وينهض ليتسلل ناحية البرج يحاول تسلقه وما أن يتدارك الوصول، فتصيبه سهام الحرس التي تُرديه قتيلًا في الحال.

ولوهلة لمحت دلال رجلًا ملتحيًا وسط الحشود، لم ترَ ملامحه من على بعد، أسَرها سمرة الرجل فأحست انقيادًا له، فكانت تفكر أن الحياة ربما تعطيها شيئًا بسيطًا من الأحلام التي غافلتها دائما. أشارت إليه فراح يلتفت حوله وأخيرًا فطن نظراتها التي تسأله الصعود إليها.

ظهرت دلال في ثوبها الجديد بعد أن تخلصت من ذلك العجوز الذي أنهك قواها سنوات طويلة، ترددت كثيرًا قبل اختيارها لمعشوقها الجديد، لم يكن تأخرها تأنِّيًا، وإنما رغبة منها في نيل المتعة وهي تراهم يتهافتون عليها ويصارعون بعضهم بعضًا من أجلها. ما زالت دلال جميلة رغم كل هذا العمر وكل تلك الهموم، تعلم هي ذلك فتتمادى في دلالها، عَشِقَها الكثير من شباب المدينة ورجالُها، وحتى عواجيزها، أيقظ فيهم جمال دلال روح الشباب وعنفوانه، أما هي فكانت في برجها العالي تنتظر رجلًا واحدًا فقط عشقته وانتظرته طويلًا؛ شاب شرقي الملامح لم يكن مفتول العضلات ولا طوله 7 أقدام لا يحارب الأسود ولا يطارد الوحوش

كما تحكي دائمًا القصص والروايات عن ذلك البطل المغوار الذين تعشقه النساء، وإنما أرادت دلال شخصًا عاديًّا يكفي أنه يعرف كيف يُحييها، ذلك هو من سيحقق لها مبتغاها فهو وحده من يستطيع إصلاح ما أفسده الزمان بها.

يعرف أهل المدينة دلال بصبرها وقوة احتمالها، تظل لسنوات هادئة حتى ينفد صبرها فتغضب ويُسمع صوت صريخها يكاد يفتك بالمدينة بأسرها، يستمر الصراخ لعدة أيام وأسابيع وشهور يسري بالليل ليفزَع الأطفال والنساء ويترقَّبه الرجال ويحذرونه، وفي تلك الليلة أسفر الصراخ عن زلزال رجَّ المدينة بأكملها وتمايلت معه القصور واهتز البرج وضربت الشقوق جدرانه وقام الكهل العجوز من نومه يرتجف.

استعدت دلال بعد تلك الليلة لاستقبال حبيبها، الذي أُبعد عنها لسنوات طوال، هي تلك السنوات التي أنهكتها وكانت في كل ليلة تنتظر فارسها الشجاع ليخلصها ولكنه أبدًا لم يأتِ فتصرخ مستغيثة.

راحت تتزين وسارت قاصدة شرفة حجرتها لتقف فوق سور برجها العالي يترقبها أهل المدينة ترفع ذراعيها في الهواء وتتهادى بخفة على أطراف أصابعها يطير شعرها من ورائها وتتمايل بحركات راقصة.

كان خوف أهل المدينة من دلال رهبة من شيء خفي غير ملموس لا يدركه العقل، فقد عُرف عنها أن جمالها له تأثير السحر على ضحيتها، تناديه دلال فينسى كل ما قيل عنها ويذهب إليها فلا يعود أبدًا، ويُعثر عليه بعد أيام إمَّا غريقًا وقد حدفه النهر على حافته أو تائهًا في المدينة فاقدَ العقل مجنونًا أو يختفي فلا يعرف أحد أين ذهب.

وكانت دلال لمن يقترب منها لعنة، لم يتوارَ الراغبون فيها عن محاولة الذهاب لبرجها العالي والهروب من أعين قائد الحرس وأسهم جنوده التي تصيب كل من يتسلل الحديقة ويحاول تسلق البرج والصعود إليها، أما هي فلا ترغب إلا في واحد فقط، ذلك الفتى شرقي الملامح الذي طال غيابه.

يقول أهل المدينة: إن دلال لا تسمح لأحد بكشف أسرارها فهي تظهر في البداية مسالمة، لا تبدِ أي مقاومة، وإنما تعطي معشوقها ما أراد حتى تتملك منه ثم تنتقم ولا تتركه إلا جثة هامدة أو يختفي فلا يعود ثانية.

وجاءت الليلة الأولى:

وهي إحدى الليالي المقمرة، الليلة الأولى من نصف الشهر العربي، ظهرت دلال بجمالها الأخاذ فوق سور برجها تتمايل كعادتها، حين أشارت له، اختارته من وسط الحشود المجتمعة أسفل البرج، استطاع الرجل التسلُّل داخل الحديقة والوصول للبرج وتسلقه حتى وصل لأعلاه دون أن يلمحه صفوان، قائد الحرس، وجنوده، وصل الرجل لدلال. أخذته من يده لتدخل به غرفتها وتقفل النافذة، تلفَّت حوله ليجد نفسه في حجرة تغطي الستائر جدرانها يسيطر عليها الإضاءة الهادئة بمصابيح مثبتة بالأركان، الأرض مفروشة بسجاد منقوش بمنتصفها مخدع بأعمدة نحاسية وستائر بيضاء أمام المخدع يوجد صينية مستديرة من النحاس بأرجل قصيرة يوضع عليها ما لذَّ وطاب من الطعام يحيط بها وسادات مغطاة بأقمشة ألوانها زاهية .

هام الرجل في جمال دلال وسحرها ونسي ما قيل عنها من قتلها لعشاقها فلم يرَ إلا حسنها، وسار لا يحوّل طرف عينيه عنها وكانت هي تتكلم وهو صامت يسمعها أو لا يسمعها سواء، فها هو قد سُحر، يصله صوتها كأنغام آلة موسيقية هادئة.

وعند الفجر لاحظ صفوان غياب دلال طوال الليل، فلم تكن فوق سور البرج كما اعتادت كل ليلة، كما أنها لم تبرحْ غرفتها من أول الليل وشكَّ بوجود أحد معها، فالغرفة مضيئة، كما أن صوت دلال يتحدث بالرغم من أنه لا أحد يرد عليها وفوجئ صفوان بعد الفجر بباب غرفة دلال يُفتح وخرجت منه دلال وخلفها الملتحي وقد ولَّته دلال إدارة شؤونها من اليوم، وعلى قائد الحرس أن يمتثل لأوامره.

لم يرُق لصفوان ما سمع، وأحس بغيرة في قلبه من الملتحي، الذي خدعه وتسلل من الحديقة وتسلق البرج ووصل لدلال دون أن يراه هو أو أيّ من جنوده. وبدأ صراع خفي يدب بنفس صفوان، تسائل كيف سوف يتلقى أوامره من شخص من عامة الشعب؟ وهو القائد العظيم، فذلك الفلاح بمظهره الرديء وجلبابه الرثِّ لا يعرف كيف يلبس ولا يأكل، لا يليق بدلال ولا تنفع له حياة الأسياد، بل هو خلق من العامة عبْدًا، لم يكن يحلم بأكثر من نَيْل عيشه من فتات البرج.

شُغل صفوان وراح يفكر، ماذا يفعل وصعود الرجل للبرج كان بإشارة من دلال؟ شهد عليها أهل المدينة بأكملها ووجود الرجل في غرفتها أصبح حقيقة يتعامل معها خدم البرج والحاشية والمقربون من دلال، وألحَّت عليه فكرة التخلص من الرجل.

قيل إن صفوان ما ترك للرجل فرصة إلا وأحرجه وسط العامة وأمام دلال، أوهمه أن أوامره تنفذ وأنه يدير البرج داخله وخارجه على غير الحقيقة، فالذي يدير شؤون دلال داخل البرج وخارجه بالفعل هو صفوان.

افتعل صفوان الأزمات التي كَلَّ منها الرجل، وازدادت الأقاويل عمَّا يفعله بالبرج. لم يطمئن الملتحي لنظرات صفوان التي كادت أن تقتله، مالَ على دلال وأخذ رأيها بشأن تغيير قائد الحرس، الذي لن ينسَ خداعه له ووصوله إليها رغمًا عنه، لم تُبدِ دلال أي اعتراض بل باركت الرأى.

حاك الرجل وقيعة صغيرة بين صفوان ونائبه، ووعد النائب بنيل منصب قائد الحرس مكان صفوان إذا ما خلَّصه منه، وبالفعل لم تغرب شمس اليوم إلا وقد اختفى صفوان من البرج وعُيّن بدلًا عنه نائبُه ضرغام..

توسَّم الرجل خيرًا في ضرغام، قائد الحرس الجديد، ولكنه لم يستطع تقدير سقف طموحاته، وإلى أي حد سوف تقف.

وجاءت الليلة الثانية.

بدأت ليلة أخرى قمرية، جلس الرجل على الوسادة وأمامه أطباق الطعام والفاكهة على الصينية النحاس وبجانبها كؤوس الشراب، تتراقص أضواء المصابيح في أركان الحجرة لتصنع تلك الإضاءة الهادئة يتراقص معها خيالات الستائر على النافذة، تجلس دلال بجانبه وتحكي ما أصابها كل تلك السنوات السابقة، كشفت له عن سر صراخها الذي كان يدوي في المكان، ويستمر بالأيام والأسابيع وأحيانًا بالشهور، قالت: إنه من يوم أن أخذ صفوان زوجها لمكان بعيد وقتله بوحشية،

وهي لم تعرف أبدًا طعم الراحة والأمان، فمن يومها وهي في شقاء تام، لم يستطع أحد الاقتراب منها إلا وقتله صفوان، ولا يسمح لأحد بالفوز بها إلا إذا كان هو نفسه من أتى به إليها.

حكت عن الأمير صاحب المقام والذي سكن القلعة ولكنه لم يستمر طويلًا فقد اختفى في يوم وليلة، قيل إن صفوان أطعمه للضباع والنمور الجائعة بالبر الآخر المهجور.

وفي ليلة سوداء قاتمة جاء لها بفتى أهوج عشقها لدرجة الجنون، كان يتخلص من أي أحد يحاول الاقتراب منها ليبقى هو بجانبها للأبد، حتى أنه قتل صديق عمره لشكه في سلوكه، مات الفتى الصديق بسنوات قليلة بعد أن تسبب لها في قطع إصبع من أصابع يدها- وأشارت بيدها التي بها الإصبع المقطوع- كما تسبب في كسر ذراعها التي التأمت عظامها بعد سنوات، ولكنه يؤلمها حتى الآن قالت أنه كان ساديًّا غبيًّا، حدث كل هذا على مرأى ومسمع من صفوان الذي تركه يفعل بها ما يشاء. تنهدت دلال وهي تقول: عشقني الفتى ولم يمت، ومات عندما عشق نفسه أكثر مني.

ظهرت الأقاويل بعد موته بسنوات تقول: إن الفتى مات مسمومًا، وتحكي أن صفوان هو من وضع له العقرب في سريره أثناء نومه.

قضت دلال تلك الليلة مع الملتحي من أحلى ليالي العمر، وقف أهل المدينة ينظرون للنافذة المضاءة بأعلى البرج ينتظرون صراخ دلال، وهلاك الملتحي الذي أسره جمالها ولكنهم سمعوا، بدلًا عن الصراخ، صوت الموسيقى يسري وخيال دلال على النافذة ترقص، ترفع ذراعيها لأعلى وتنزل بهما لأسفل، تطير

في الهواء بحركة دائرية وتركع على ركبتيها وتتطاير خصلات شعرها من ورائها.

خفت صوت الموسيقى، وجلست دلال بجانب الرجل لتستريح وتكمل عليه باقي حكايتها، وكان الرجل في كامل نشوته وهيامه، بدأت دلال في قص ذكرياتها.

حكت له عن الأسمر الذي عشقته وجاء ليصلح ما أفسده الفتى، قالت:

- أحبني الأسمر وأعطيته ما لم يكن يحلم به، داوَى جراحي ولم أنتظر يومًا الخيانة منه فقد عشق غيري، فتاة شقراء ذات عينين خداعتين تبثُّ سمها ليل نهار بالبرج والمدينة بأسرها، استطاعت بمكر ودهاء أن تُوقعه في حبها، اهتم بعشيقته وترك نار الغيرة تأكل مني أنا دلال التي يتقاتل عليها العشاق، أمرت صفوان قائد الحرس بالانتقام لي بأبشع طريقة يشهدها أهل المدينة أجمع، فما كان من صفوان إلا أن نفذ رغبتي، وكان العيد القومي للمدينة قد اقترب موعده، وتم التحضير لحفل كبير، وأمر صفوان المنادي بالصياح في المدينة كلها أزقتها وحواريها وشوارعها حتى يجتمعوا في اليوم الموعود لمشاهدة الحفل الذي سيحضره كبير البلاد.

جاء يوم الحفل يوم سطعت فيه الشمس بوضوح، وجلس الكبير على كرسي عالٍ تم تحضيره له من قائد الحرس بنفسه ليشهده أهل المدينة بأكملها، وفي منتصف الحفل والكل منتشٍ يرقص ويغني والحبيب جالس على كرسيه، فوجئ بسهام تأتيه من كل اتجاه، رأيته يقف ومازالت قدميه تحملانه والأسهم تعرف طريقها إلى جسده حتى جاءه صفوان، نظر إليه وعيناه تتسعان عجبًا مما يرى، وبات يستغيثه

فأغاثه صفوان بغدر سيفه، انتزعه لينزل به على رقبته فطارت رأسه في الهواء بعيدًا لتسقط وسط الحشود التي كانت ترقص.

سقط الرأس على الأرض وفزع الجميع وتوقف الرقص والغناء وابتعدوا عن الرأس المقطوع، وسرعان ما اقتربوا منها، التفوا حولها في شكل دائري يحققون النظر في الرأس الملقاة على الأرض وفور تعرفهم عليها ظهر عليهم الحزن وأصابتهم الشفقة على الحبيب الأسمر.

صمتت قليلًا تمسح دمعة تساقطت من عينيها، أكملت:

- كانت صرخاتي في تلك الليلة مدوية واجتمعت كل مشاعري المتناقضة فخرجت من نافذة حجرتي لأقوم برقصتي فوق السور كعادتي وكانت خطواتي حزينة، نظرت للأسفل لأجد الأعين تترقبني، حزنت واتشحت بالسواد لسنوات طويلة، لم أخرج من حالة الحزن أبدًا مع العجوز الذي أنهك قواي وأضعف جسدي .

علا صوت الموسيقى ثانية، وظهر على النافذة بأعلى البرج خيال دلال ترقص وتتمايل مع خيالات الإضاءة التي تعلو وتخفت، ظهر ظل الرجل من خلفها تجره دلال بوشاح يحيط بعنقه وتمسك هي بطرفه، تتمايل يمينًا وشمالًا ويتمايل معها بخفة وهيام، يظهر ظل الرجل على النافذة لأهل المدينة مخمور سكران وفي الحقيقة أن جمال دلال قد أسكره.

جاء نهار يوم جديد، ولم تتوقف المؤامرات باختفاء صفوان، وإنما ظهرت القصص والأقاويل، عن الملتحي الذي سكن البرج وكان من عامة الشعب، قيل إنه في ليلة ونهار أكل كل الطعام الموجود بالبرج والذي كان يعد للولائم

والضيافات، قيل إنه أمر بذبح كل طيور البرج من بط وحمام وعصافير الزينة والبغبغانات وأكلَها بعد أن أمرهم بصنع تاج له من ريشها الملون.

لم يبالِ الرجل بتلك الإشاعات وبدا وكأنه لا يرى شيئًا ولا يسمع أحدًا إلا دلال، لم تمر تلك الليلة على ضرغام مرور الكرام، فكان صوت الموسيقى يُدمي قلبه، وضحكات دلال وخيالاتها على النافذة وهي ترقص، تشعل غيرته وظل طوال الليل ينظر لنافذتها المضاءة لا يحوِّل عينه عنها.

انتشرت الإشاعات التي روجها ضرغام، بين ساكني البرج لتفتح الأبواب وتخرج لأهل المدينة، فقالوا إن الرجل نسي مشاكلهم وهمومهم وسكِر بجمال دلال وسحرها، قيل إنه أصبح ينام على ريش النعام ويلبس من جلود النمور والفهود، كما أنه يترك عشيرته تعبث بحديقة البرج كيفما تشاء، بل سمح لهم بالكثير من المكافآت والمزايا والأوسمة وتركهم- أهل المدينة- للفقر والجوع.

أشاع ضرغام في المدينة أن الرجل يُفشي أسرار البرج ويجلب الأعداء، قال إنه بالفعل قد باع الحديقة الخلفية لأحد الجيران، كما أنه أتى بعشيرته نصبوا الخيام بحديقة البرج الأمامية وأقاموا بها ، الأمر الذي أفقد البرج هيبته ومكانته، فقد أكلوا الأخضر واليابس بها، وقضوا على مخزون الذرة والقمح الذي يُخزن ليطعم منه أهل المدينة لعام كامل، وقتلوا الحيوانات الموجودة بحظيرة البرج، من خيول وبغال وحمير، سلخوا جلودها وأكلوا لحومها وعملوا على تقطيع الشجر النادر بالحديقة لحرقه والتدفئة عليه أثناء الليل وزرعوا الجديد والبصل بدلًا من نباتات الزينة، وبنوا الفرن للخبز بدلاً من النافورة التي كانت تزين المكان، وما زاد الأمر

هياجًا، هو ما قيل عن أن البئر الموجودة بالحديقة ،ويُسقَى منها أهل المدينة، جاء بالمعدات لردمها.

سار ضرغام بالبرج، ينشر الإشاعات عن الرجل طوال اليوم بين الخدم والجنود حتى صدقوها، فعلى الرغم من أن أعينهم لم ترَ بئرًا رُدِمت، ولا بطًّا أُكل، ولا يزين رأس الرجل تاجٌ من الريش الملون لطيور الزينة، إلا أنهم تناولوا تلك القصص والحكايات في أحاديثهم على مدار اليوم حتى صدقوها ونشروها بين أهل المدينة خارج أسوار حديقة البرج، بل زاد عليها الأهالي من خيالهم الكثير من الخرافات، فقالوا إن شكل الرجل أصبح غريبًا فقد نفخ جسده كالبالون، ونما له ذيل وقرون، وأصبح لا يبرح مكانه بجانب دلال، يأتي له الخدم بالطعام والشراب في حجرتها.

وحين كان كل من بالقصر يتأمر عليه، كان الرجل لا يفكر إلا في ماذا كان وكيف صار، يستعيده بعقله ويردده على نفسه:

- لم أشعر يومًا بهذا الاهتمام من أحد قبلها ولم أتخيل أن أكون أنا من تُشاور لي في تلك الليلة وسط الحشود، أنا المنبوذ في مدينتي، لم يشعر أحد يومًا بآلامي أو بانكساري، بل كان كثيرًا ما يصيبهم مظهري بالاشمئزاز والقرف، لم يكن حضوري يسعدهم وإنما كان اختفائي يعني لهم الرضا والهدء، حاولت كثيرًا الاقتراب ولم أجد منهم إلا اللعنات والسباب يدفعون بصغارهم لإلقائي بالحجارة وإجباري على الابتعاد، كنت دائمًا ما أختبئ بعيدًا قاصدًا جبلًا عاليًا أرى منه دلال في نافذة برجها العالي أشاهد خطواتها فوق السور وتطربني أصوات الموسيقى التي تسري ليلًا في الخلاء، وفي ليلة بهية من لياليها طربتُ حد الانتشاء وسقطتُ

في أعماق النفس حد المغشي علي، ورأيتها تقترب مني وكأن الريح تحملها حتى أتت بها إلي، وعندما هممت أن أمسكها اختفت فكان السراب.

استيقظت ونظرت للنافذة المضاءة بأعلى البرج وما زالت هي هناك ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أسير وسط الحشود أتقدم لأول الصفوف وإذ بها تلمحني من بعيد تصيبني نظراتها وكأنها تسألني أين كنت كل تلك السنين؟! وحين كانت تدور فوق السور يتطاير شعرها في الهواء ويظهر عليها نشوة اللقاء أشارت إليَّ، قالوا كيف نأمن لمن كان في الجبل خفيًّا، لم أُلقِ لكلماتهم اهتمامًا فقد أشارت إليَّ دلال وهذا يكفي، تركت الجميع وتسللت الحديقة وتسلقت البرج وها أنا الآن في حجرتها ليس حلما ولن تختفى هي كالسراب.

وجاءت الليلة الثالثة...

وكانت آخر الليالي القمرية في الشهر العربي، كشفت دلال للرجل عن خوفها وقلقها الدائم منذ اختفى العجوز، فكان صفوان يحسب لكل شيء ويعد لكل شيء دون أن يرجع لأحد أو يُطلع أحدًا على أسرار البرج عقد الصفقات وحاك الموائمات لتظل هي تحت قيادته حتى جاء هو وخلصها من قيدها الثقيل.

ما زالت الليلة في أولها وما زال الرجل يستمع لدلال، تحكي عن الأيام التي قضتها مع العجوز ولياليه المملة الباردة كالثلج، تشكو أنه لم يكن يبالي بشيءٍ، لم يهتم لأمرها، ولم يكترث لمشاعرها، فلا يثور لأوجاعها ولا يحزن لآلامها، أما أبناؤه من زوجته الأولى، فكانوا يعبثون بكل شيء بالبرج، أثاثه وتحفه ودواليبه، حتى أن أهل المدينة لم يسلموا منهم، قالت إنها سئمت منه ومن أبنائه ولم تفرح يومًا

معه حتى تعالت أصوات أهل المدينة يستغيثون ويطالبون بإنزاله من البرج، فقد قتل أبناءهم جوعًا ومرضًا وقهرًا، أردفت دلال:

- كدت أطير فرحًا وأنا أرى قائد الحرس يستجيب لصراخي ولغضب أهل المدينة الذين كانوا يبيتون أمام البرج بالأيام والليالي منتظرين نزول العجوز وأبناءه. رأيت صفوان يكبل العجوز ويأخذه لمكان غير معلوم، قيل إنه وضعه في كهف بالجبل يقف على بابه اثنان من الأسود، ينهشون لحم من يحاول الخروج منهم، وقيل إنه يحبسهم في سرداب تحت الأرض بسبعة أمتار، ومنهم من قال إن قائد الحرس ألقى بهم في جزيرة بعيدة مهجورة تحيطها المياه من كل اتجاه، قال آخرون إنه ألقى بهم في البئر. لا أحد يعرف حقيقة مصيرهم ولكن على أي حال، فرحت المدينة بأكملها باختفائهم وإزاحتهم عن البرج، ونصبت الأفراح ودقت الطبول واستمر الرقص والغناء الليلة بطولها حتى طلعت شمس الصباح.

أكملت دلال:

- وبعد تلك الليلة بشهور، نشب الكثير من الخلافات، بين الخدم والحرس والعاملين بالبرج في الداخل، والأهالي بالخارج، فقد ظهر الفساد على السطح وتدنت الاخلاق فرأيت من برجي العالي الكل يأكل بعضه، القوي يضرب الضعيف والصغير يسب الكبير والأيادي تتشابك متناحرة والجوع والفقر ينهش في العظام، فكثر النهب والسرقة، رأيت الأخ يقتل أخاه في مشاجرة على الميراث والأم تُلقي بابنها في البئر بعدما جف لبن ثديها ولم تجد ما تطعمه به، والرجل يضرب أمه وضاع الأمن والأمان وانتشرت الخرافات والسحر والشعوذة بينهم.

وفي ظل كل ذلك انتظرت من يخلصني ويخلص المدينة مما جرى بها، ولكن وفي كل مرة يتقدم أحدهم لتقديم الخلاص يحيك ضده صفوان الخدع والمؤامرات فيبعده عن البرج، وإن لم يفلح يسلط عليه الجنود ليصوبوا نحوه سهامهم، حتى جئتَ أنت واستطعت بقوة وذكاء الإفلات من أعين وسهام جنود صفوان، والتسلق والوصول إلى هنا.

تابعت:

- ولكني ما زلت قلقة، فأنا أعلم أن صفوان شرس ولن يستسلم بسهولة فبالرغم من اختفائه إلا أني أشم رائحته في دهاليز البرج وأكاد أراه يدير الدفة من وراء الستار ولا أمان لنائبه...

وهنا خرج الرجل عن صمته وقال لها أن ما فات لن يعود، فقد أتى بعشيرته لتحميه من غدر صفوان قائد الحرس السابق ونائبه ضرغام الذي هو القائد الجديد. وعدها بحسن المعاملة ورد كرامتها التي أهدرت، وعدها بأن يصلح لها البرج الذي ساءت حالته ويحافظ على مياه البئر من التلوث وقد أتى بالفعل بالمعدات والعمال الذين يعملون الآن على تنقية مياه البئر وتحليتها بل إنه سيحفر بئرًا جديدة بجانب القديمة ليكفي أهل المدينة الذين زاد عددهم، قال إنه أمر بزراعة رقع أكبر من الأرض بالذرة والقمح لتحقيق الاكتفاء لأهل المدينة، حتى لا يموت أولادهم جوعًا وأنه سيعد جيشًا من أبناء المدينة من الشباب، ليحميها من الأعداء وسيعمل على تدريبهم على الفروسية والقتال وفنون الحرب والتخطيط، وَعَدها بالاهتمام بالصحة والتعليم وتوفير الطب والدواء.

وأثناء إلقاء الرجل وعوده على دلال كان ضرغام بالخارج يُلقيَ بأذنه على باب الغرفة يسترق السمع، فأسرع في الحال يأمر الحراس بفتح باب الحديقة للحشود الغاضبة بالخارج من أهل المدينة الذين أهاجتهم الشائعات والأقاويل وصدقوها، وخاصة أن الرجل لم يظهر ولم يعمل على تكذيبها منذ أن دخل البرج، فتح الحرس الباب على مصراعيه وإذ بالناس يأتون أفواجًا، يهرعون ناحية البرج ينظرون للنافذة المضيئة بأعلاه، منهم من حاول تسلقه دون جدوى يعلو صوتهم بالهتافات المطالبة بإنزال الرجل مطالبين ضرغام قائد الحرس بتخليصهم منه ، قالوا عنه أنه خائن بشع منفوخ كالبالون ذو ذيل وقرون ،عابوا عليه أنه نسي همومهم وسكِر بجمال دلال وسحرها.

سمع الرجل من داخل غرفة دلال الأصوات الغاضبة بالخارج فهمَّ لفتح الباب، وإذ بكرة ملتهبة من النار تكسر النافذة ، دخلت الحجرة وكادت أن تحرق الأرض لولا أن أطفأها الرجل بالضرب عليها بقدميه، وخرج مسرعًا يطل من سور البرج ليرى الحشود وقد اجتمعت ضده غاضبة يصرخون ويشعلون الحديقة ويضربون بأيديهم قطع الصفيح فتصدر صوتًا مزعجًا، حاول الرجل فهم أسباب غضبهم، اتهموه بأنه لا مكان له في البرج فهو غير ذي صفة لا يليق بدلال بل يستحقها من هو أعظم منه وأبهى، تعجب الرجل وأشار لهم بالتزام الهدوء كي يسمعوه ولكنه لم يجد استجابة لمطلبه، فعلا صوته متسائلًا:

- كيف ليس لي صفة! وأنا من أشارت لي دلال واختارتني من بينكم في تلك الليلة القمرية أنسيتم؟ أم استخف بعقولكم من هو ذو طمع فأطعتموه.

حاول الرجل الرد على الإشاعات التي ألقاها على مسمعه الأهالي، ولكن دون جدوى، بل إنه وقف فوق السور ورفع عمامته من فوق رأسه ونزع عباءته ورماها على الأرض ليكشف لهم جسده الذي بلا ذيل ولا قرون، رفع يديه في الهواء يدور يمينًا وشمالًا يلتف للخلف وللأمام، كاد أن يفقد اتزانه ويسقط فلحق بنفسه، وأعاد دورانه فوق السور في شكل بهلواني، علا صوته، قال:

- أنا من اختارتني دلال أنا من أشارت لي أنا الحلم والأمل والمستقبل.

ظل يكرر كلماته بشيء من الحماسة، ولكن لم يسمعه أحد من الحشود المجتمعة بأسفل البرج، ولاحظ أنهم قد صُمَّت آذانهم وكُفَّت أعينهم، فلم يروا إلا ما أراد قائد الحرس أن يروه ولم يسمعوا إلا ما أرادهم أن يسمعوه ويصدقوه من أكاذيب وافتراءات عليه، حاول الرجل تهدئة الحشود التي تشاجرت مع من هم من عشيرته داخل الحديقة ولكنه جاء متأخرًا، واستغل ضرغام الصراع الدائر بالحديقة، وصعد لأعلى البرج وسار بالردفة قاصدًا حجرة دلال، وصل للنافذة ومشى على أطراف أصابعه ليقترب من السور، وحين كان الرجل يلتفت ويؤدي حركاته البهلوانية فوجئ بضرغام الذي عيَّنه بنفسه خلفًا لصفوان ووثق فيه، يقف أمامه ويزج به من فوق سور البرج العالي ليهوى جسده من أعلى وعيناه تتسعان ناظرتان بدهشة وحيرة لضرغام وفي ثوانٍ يرتطم بالأرض ، عيناه معلقتان بالفراغ وشفتاه تتحرك بكلمات حفظها ورددها:

ما كان البعد زهدًا بيننا

وكيف أزهد فيكِ وأنت أنا

ولكنَّها الأقدار خطت أمرنا

فضاق على وُسع الزمان لقاؤنا

وقف ضرغام بأعلى البرج ينظر جسد الرجل القابع وسط بركة من الدماء، ثم شرع يحدث نفسه:

"قوة خفية هي تلك التي دفعتني لما فعلت، كنت أشعر دائمًا بشيء ما داخلي يحركني، أنا من حملت روحي على كتفي أترقب يومي وسرت بين الناس غدي ليس بملكي، أنا من يستحق الجلوس على عرشها، تواردت عليَّ الرؤى الواحدة تلو الأخرى ورأيتني أملك ما لم يملكه أحد غيري، كثيرًا ما طمعت في الفوز بها وطمعي هو العدل بعينه، وكنت أعرف أن السيطرة على عقول هؤلاء الأغبياء بالخارج تأتى من خواء بطونهم فخبأت مخزون القمح والذرة ورحت أروي عن الرجل الحكايات التي كانت تنتشر كالنار في الهشيم فتشعل قلوب الجائعين فلا يترك لهم الجوع فرصة التفكير بعقولهم، بل زادوا عليها من خيالهم، وتركتُهم يأكلون بعضهم البعض حتى أتيحت لي الفرصة لتحقيق ما حلمت به:

أنا المتيم بأرجاء المكان

أنا المُداوي لجروح الزمان

أنا من يستحق دلال"

توقف الصراع بين الأهالي، وتجمعوا حول جثة الرجل الهامدة على الأرض بلا حراك يحققون النظر، يبحثون فيه عن ذيل وقرون والتاج المصنوع من ريش الطيور ينظرون لملابسه التي قيل إنها من جلود الفهود والنمور، لم يجدوا أيًّا مما سمعوا، رأي ضرغام الحشود بالأسفل تحتشد حول جثة الرجل، وأراد أن يتشفى فيه ويتأكد من موته. ترجل مسرعًا على درجات سلم البرج حتى وصل للحديقة وأخذ يخترق الحشود إلى أن وصل للجثة الهامدة على الأرض غارقة في الدماء، ألقى نظرة على وجه الرجل فوجده مبتسمًا، مات الرجل ولم يترك لضرغام فرحة التشفي به بابتسامة تعمدها على وجهه قبل انسحاب روحه منه.

نظر قائد الحرس للجثة في ريبة وانتابته رعشة بجسده، فقد كان الرجل مبتسمًا وعيناه معلقتان بأعلى، وكأنه ينظر لشيء ما، رفع القائد ضرغام رأسه ومد نظره لمكان امتداد نظرة الرجل، ليجدها هناك، دلال، في ثوبها الشفاف تمشي فوق سور البرج تتهادى على أطراف أصابعها ترفع ذراعيها في الهواء تؤدي حركات راقصة في خفة وهيام، وشعرها الأسود سواد الليل يتطاير من خلفها تنظر لضرغام، وتشير له بيدها ليلبي هو النداء ويهم ليصعد البرج لدلال.

***

نافذة على العالم الموازي

ظهر النيل بجمال طلته عند الشروق، والنوادي المقامة على ضفته، والأبراج العالية في الجهة المقابلة، والسيارات الفارهة تقف أمام الفنادق ذات الوجهات الزجاجية. كان حسن يدفع من أمامه عربة البليلة وحمص الشام، يقف بها يوميًا على كورنيش النيل، عبر الطريق، دخل شارع جانبي ثم انحرف بالعربة لتبتلعه حارة متفرعة منه. انحنى يمينًا فيسارًا قاصدًا مسكنه خلف الأبراج العالية على النيل.

مر بالمقابر على يمينه، بادل التحية مع المارة، لا يحمل حسن نفسه عبء رفع عينه ليرى وجه من يلقي عليه بالسلام، يكتفي بهز رأسه ويسير في طريقة غير مبالٍ، مر ببعض ورش السمكرة والكاوتش وقطع الغيار المستعملة للسيارات، قرب نهايتها ظهرت عشش الصفيح ومباني قديمة بمساحات صغيرة ضيقة من الداخل تتكون من طابق أو طابقين على الأكثر، تتقارب البيوت بشكل كبير، يعرف السكان حكايات بعضهم وما يدور بداخل الحجرات ووراء الأبواب التى لا تحجب الأصوات، يُقحمون أنفسهم في حوارات بعضهم البعض دون غضاضة من الجار أو قصد في التنصت من الآخر وكان الفاصل بينهم قد ذاب مع مرور الزمن.

ترك حسن العربة أمام المنزل، ودخل ليجد زوجته سعاد نائمة على الأريكة بوسط الدار، ألقى بجسده على الأريكية المقابلة لها، أسفل النافذة، راح في نوم عميق، لم يُقظه منه إلا صوت أم سيد جارتهم تصيح في الصبية وتسبهم كي يبتعدوا عن بيتها، وكان الوقت قد قارب على أذان العصر.

أَذَّنَ الفجر، وكانت ليلى في حجرتها تتصفح موقع الفيس بوك على محمولها، سمعت صوت أبيها يعلو ويصيح في أمها التى لم تتذكر، ليلة أمس، أن تنقع حَبَّ حمص الشام، يقوم هو بتسويته عندما يستيقظ من نومه، آخر النهار وقبل أذان المغرب بقليل، يحمل القِدر على عربته، بجانبه قدر البليلة وأطباق بها ترمس وبعضالتسالي، يبيعها للمارة والحبيبه على كورنيش النيل.

واصل حسن الصياح وإلقاء اللوم على زوجته التي ستضطره لوضع الحَبِّ على النار دون أن يُنقع من الليل، وسوف يأخذ وقتًا أطول في التسوية مما يتسبب في إهدار الغاز الموجود بالأنبوبة والتي يتعدى ثمنها السبعين جنيهًا الآن.

تعللت زوجته، قالت انها رجعت البيت ليلة أمس مرهقة بشدة، فهى تعمل في بيت إحدى السيدات الثريات التي كانت تستضيف أمس أحد الشخصيات الهامة في المجتمع، ويظهر على شاشة التلفاز، ولكنها لا تتذكر اسمه حاليًا، قالت سعاد أن الضيف كان يظهر أقصر في الحقيقة مما تظهره الشاشة لهم وأقل حجمًا، اصطحب معه زوجته وهي في غاية الجمال، ذات شعر ذهبي وأظافر طويلة مطلية تضع المساحيق على وجهها وترتدي القصير والمكشوف، قالت أنها عندما جاءت ليلة أمس لم تشعر بنفسها من التعب والإرهاق، ألقت بجسدها على الأريكة وذهبت في نوم عميق، واستيقظت بالصباح الباكر لتذهب للسيدة، ترتب لها البيت بعد سهرة أمس، وحين انتهت من عملها، عادت إلى البيت وما زالت لم تغير حتى ملابسها.

لم يقتنع حسن بمبررات زوجته سعاد، ظل يصيح، جاء صوتُ جارتهم العجوز من شبَّاك حجرتها المطل على الحارة ويكشف بيت حسن من الداخل، تنهر حسن قائلة:

- ما خلاص ياخويا يعنى نسيت التشريفة.

- خليكِ انتِ قي حالك يام سيد.

- حالي أحسن من حالك.

قاطعها حسن مغيرًا دفة الحوار :

- سيد لسه سايبك وبيتنطط في القطارات؟ مش هيرجع إلا لما يقع وتنكسر رقبته.

أشاحت أم سيد له بيدها، نظرت من شبَّاك حجرتها بعيدًا على مدى البصر، تنتظر عودة سيد وتشتاق لرؤيته فقد غاب هذه المرة على غير العادة.

جلست ليلى في مخدعها بالحجرة التي تضمها هي وإخوتها، تتصفح موقع الفيس بوك من شاشة جوال، اقتنته من أحد الباعة الذين يعملون في أجهزة المحمول المستعملة والمسروقة، تستطيع من عملها، مشرفة حافلة تابعة لمدرسة خاصة، توفير ثمن باقة شبكة الانترنت تمكنها التواصل من خلال مواقع التواصل الإجتماعي.

دخلت موقع الفيس بوك، بعد أن علمتها صديقة لها، كيفية انشاء حسابًا خاصًا بها على الموقع، ملأت بياناتها والتي كانت مغايرة للواقع ولا تعبر عن حقيقتها المعيشية، في خانة العمر كتبت بعد تفكير قليل، خمسة وعشرين عامًا بدلًا من اثنين وثلاثين، لم تفكر في مكان السكن، على الفور كتبت، المعادى، أضافت إليها كلمة (أبراج) ليصبح مكان السكن، أبراج المعادى. لم تكتفِ بذلك بل امتد طموحها في الخداع، إلى أن تضع بخانة المؤهل الدراسي حروف "AUC"أضفى ذلك عليهارونقًا وبهاءً واحساس بالفخر بنفسها، فأحبت ليلى الإفتراضية الموجودة على

موقع التواصل عن تلك الحقيقية التي تخجل من تقديمها للعالم الجديد الذي اقتحمته عن طريق محمولها.

اسندت ليلى رأسها على الوسادة، وكانت معلقة عيناها بالسقف، أتتها خيالات طفولتها البائسة، دائما ما تنتظر الأفضل وتصبر على حياتها، تذكرت كيف كانت تعمل منذ نعومة أظافرها في مجالات عدة، تقف مع أبيها تبيع حمص الشام والترمس على الكورنيش، وأحيانًا تتركها أمها في المنزل تعتني بإخوتها الصغار، وكثيرًا ما كانت تأخذها معها تساعدها في خدمة البيوت، إلى أن أصبح عمرها مناسبًا للعمل، مشرفة حافلة لإحدى المدارس الخاصة، لم تكن طباع ليلى حميدة بالكامل، ففي أحد الأيام اشتكتها إحدى زميلاتها من المشرفات لمديرة المدرسة، قالت الفتاة أن ليلى سرقت منها موبايل كانت تمتلكه، أنكرت هي الإتهام ولم تستطع الفتاة إثبات الواقعة عليها، تغيبت عن المدرسة لعدة أيام وكانت قد استبدلت الموبايل بآخر من أحد الباعة الجائلين الذين يعملون في عِدَد الموبايلات المستعملة والمسروقة، بعد أن أعطته القليل من المال مقابل استبداله بجهاز أفضل.

أفاقت ليلى على صوت أبيها مازال يناكف أم سيد بالشباك، ابتسمت نصف ابتسامة قبل أن تنتبه لموقع التواصل على محمولها، أرسلت طلبات الصداقة لأشخاص بشكل عشوائي وأخرين أعجبها صورهم، اختارتهم من شكل ملابسهم وفخامة مستواهم الاجتماعي الذي أظهرته صورهم ومعلوماتهم على الموقع، كان من بين تلك الصور، صورة لرجل في الأربعين من عمره، يرتدى قميصًا أبيض مفتوحة أزراره، يعقد وشاحًا حريريًّا حول عنقه، وتتدلى منه سلسلة جنزير ذهبية طويل يصل إلى منتصف صدره، اكتملت فخامته بسيجار كبير في فمه يسنده بإصبعه،

وشعره الأسود الناعم الممشط لأعلى. ابتسمت ليلى ورفعت حاجبيها وبدت معجبة بالرجل، وإن لم يكن إعجابها به هو ذاته، ولكن أحبت ثرائُه الذي اظهره شكل ملابسه وجسده المفتول يدل على صحة جيدة، لم تكتف بذلك بل بحثت في صوره الأخرى، ولم تتردد في ارسال طلب الصداقة.

دائما ما كانت تشعر بالغربة في مكانها بالحارة، فروحها متعلقة بمكان آخر بعيد عنها تقول دائما أنها خلقت في المكان الخاطئ تنظر لواقعها وكأنه ليل ثقيل ورأت أنها بوجهها الجذاب وجمال جسدها تستحق أكثر مما هي فيه بكثير، دائمًا ما تقف أمام المرآة تتأمل جسدها المتناسق تتحسسه بيدها، تدور يمينًا ويسارًا، وتروق لها نفسها وتتساءل:

- مَن يستحق نيل هذا الجمال؟

وكان ذلك كافيًا لترفض الكثير ممن تقدموا لها راغبين في الزواج منها، وحالهم في نفس حالها، ينقص أو يرتفع قليلًا.

انتبهت ليلى لنداء سعاد أمها، تصيح فيها لتساعدها في أعمال المنزل بدلًا من مكوثها فترة طويلة بحجرتها تنظر في ذلك الشيء الذي ابتليت به، كما قالت سعاد، لم تدقق من أين جاءت ابنتها بثمنه، ولكنها أرادت أن تصدقها عندما قالت لها أنها حصلت عليه من عملها، سلمته لها المدرسة الخاصة التي تعمل بها.

كانت أم سيد ما زالت بالشبَّاك تطل برأسها منه وتمد نظرها لآخر الحارة تنتظر عودة سيد الذي طال الغياب، تسأل عليه المارة، أما سعاد فقد استعدت للذهاب لعملها وكان النهار في آخره. خرج حسن من المنزل يجر عربته المزينة بأوراق

ملونة وبعض الأجراس تصدر أصواتًا متناغمة، عليها قِدْر حمص الشام وآخر للبليلة وأطباق الترمس يتجه بهم للكرنيش.

عادت ليلى لمخدعها وانشغلت بمحمولها، فتحت موقع الفيس بوك لتجد أمامها ذلك الرجل وقد قبل طلب الصداقة، ابتسمت وراحت تتصفح صفحته، لتجده قد أضاف بعض الصور له مع أصدقائه، يحتفلون ليلة أمس بعيد ميلاد إحدى الشخصيات العامة من الفنانات المقربات لديه هو وزوجته، نظرت في الصور وجوه غريبة وملابس فاضحة وأجساد شبه عارية ، أحست أجواء صاخبة أظهرتها الصور، لمسات حميمة رقص وغناء وذلك الرجل الأربعيني يظهر بصحبة الكثير من النساء في معظم الصور، يرتدي قميصًا أسود فُتحت أزراره الى منتصف صدره يتدلى من عنقه الجنزير الذهبي ذاته، لمعت عين ليلى وشعرت برهبة من تلك الأجواء وكأنها خرجت من شاشة المحمول وانتقلت إليها في مخدعها.

طرق أحدهم الباب، لم تهتم ولم تتحرك من مكانها، ظلت شاردة تتأمل الصور، انتبهت للطرق على الباب وفكرت أن الطارق سوف يرحل، ولكن ازداد الطرق مرة تلو أخرى، وبعد فترة ليست بالقليلة اضطرت للقيام بضيق صدر لتكتشف أن من بالباب عمتها ومعها أطفالها. كانت العمة تبكي بشدة، عيناها متورمة وحولها أزرق، وجهها به سحجات، سألتها ليلى:

- مالِك يا عمتي؟ جوزك بردو زي كل مرة؟

- أيوة هو اللي ينشل في دراعه.

وعندما سألتها عن السبب، قالت العمة:

- مافيش سبب، دا كان هادي قبلها وقاعدين بقوله عايزة اودي الواد للدكتور الواد في بطنه كلكيعة بقالها سنة بتكبر، خايفة منها وعايزة اروح أكشف عليه، لسه بقوله راح قايم مرة واحدة فوقي بالضرب زي المجنون.

صنعت لها ليلى كوبًا من الشاي وجلست بجوارها حتى هدأت، أخذتها إلى حجرتها لترتاح حتى تعود أمها من عملها.

عادت لمحمولها، فتحت الشات، أحدهم يضع لنفسه اسم طائر الرخ، طلب التواصل معها عبر الخاص، لم تمانع فهي في حاجة لمن يسمعها وتحكي له ولا يعرفها، حكت له عن عمل أبيها في مجال البزنس والبورصة، وعن أمها سليلة العائلة العريقة، وتعليمها العالي في المدارس الدولية، حتى الجامعة الأمريكية .

ملت منه، راحت تتصفح الفيس بوك تقرأ بعض الأخبار التي لا تهتم بها كثيرًا عادت لتقرأ عن حادثة غريبة لأب يلقي بأطفاله في النيل أظهرت إشفاق عليهم، قرأت بعض التعليقات الرافضة لأنْ تصدق أن أبًا يفعل هذا بأبنائه، تعاطفت معه واتهمت أيادي خفية بالواقعة، انتقلت لخبر آخر عن ممثلة تخضع لعملية تجميل في الأنف.

تنفصل تمامًا عن واقعها وهي تتجول بين صفحات موقع التواصل، أفاقت على صوت شجار الصغار وحاولت منعهم وفض الاشتباكات ثم أغلقت المحمول وذهبت للقيام ببعض أعمال المنزل قبل مجيء أمها.

ومازالت أم سيد تنتظر سيد بالشبَّاك، تبحلق بالمارة، وتعايب على طريقة ملبسهم، تراقب أفعالهم وتنظر إلى ما يحملونه من أكياس فاكهة ومشتريات، تستوقفهم من

تعرفهم وتسألهم عن سيد على أمل أن يكون أحدهم قد رآه. عبر رجل الروبابيكيا ينادى بصوت مميز على بضاعته، وتتتبعه أم سيد بعينيها حتى يبتعد بعيدًا ويترك الحارة. ظهر بعد قليل صبيان يتشاجران على زجاجة بيرا سرقاها من الفرح المقام له مسرح في آخر الحارة، استعد أصحابه لإحيائه في الليل، امسك الصبيان كلٌّ منهما ملابس الآخر، وتجتهد أم سيد في منعهما بكلمات حادة وشتائم نابية اعتادت عليها، التقط أحدهما حجرًا من الطريق القاه عليها ليكسر نافذة شبَّاكها مما اثار غضبها بشدة، سمعت سعاد صوتها تصيح في الصبيين وكانت عائدة من عملها هدأت من غضبها وقبل أن تتركها لتدخل بيتها أعطتها أم سيد تقريرًا بمن دخل بيتها في غيابها، اخبرتها عن عطية أخت زوجها التي أتت بأطفالها متورمة الوجه، تبكى بشدة وسمعتها تقول أن زوجها ضربها دون سبب. دخلت سعاد البيت مسرعة سألت ليلى عن عمتها ثم توجهت للحجرة مباشرة، قالت لها ليلى في استهجان:

- خدتي التقرير من أم سيد؟

اشاحت لها سعاد بيدها، ودخلت مسرعة ترحب بعطية، شهقت بصوت عالٍ عند رؤيتها لوجهها المتورم، لحقتها عطية بالانفجار في البكاء.

اطمأنت ليلى لعودة أمها، عادت لمحمولها لتغيب عن الواقع وتندمج في ليلى التي اختارتها لنفسها في عالمها الافتراضي، تفاجأت بصديقها الأربعيني أضافها لجروب يضم صفوة المجتمع من الأثرياء، فنانين ومطربين ورجال أعمال ومسؤولين في الحكومة وشخصيات عامة وأبنائهم وزوجاتهم، وشخصيات خليجية

أميرات وأمراء، وأسماء لامعة ومؤثرة في الاقتصاد والاستثمار، أطلق على الجروب اسم "الأكابر".

لمعت عيناها وافتخرت بنفسها وبأنها من ضمن أعضاء جروب يحمل كل هؤلاء الكبار من صفوة المجتمع، جلست تتابع تعليقات هؤلاء الأثرياء ومنشوراتهم التي تختلف كثيرًا عن واقعها، تستمتع بعالمهم وتتعلق به روحها السجينة داخل ذلك الجسد القابع في مكان لا ترغبه، راحت تقرأ المنشورات وتشاهد الصور، حلمت بأن تعيش هي تلك الحياة المرفهة...

تلك هي مولي ذات الشعر الأحمر الناعم وعدسات عينيها الخضراء، وجهها الملطخ بمساحيق الماركات العالمية، وفستانها المكشوف غالي الثمن، كتبت مولي فوق صورتها:

- مساء الخير الراحة لا تختبئ بين أوراق المال.

ولا أوراق الشجر...

ولا مع أشعة الشمس...

الراحة تنبع من القلب من الإيمان بالله...

نظرت ليلى إلى تلك الكلمات وتأملت صورة مولي، أفلتت ضحكة من بين شفتيها غير مقتنعة، فها هي أمها سعاد محجبة وكذلك عمتها التي يضربها زوجها بلا سبب، وخالتها المنتقبة، ليس رغبة منها ولكن لأن هذا هو سِلو عائلة زوجها، وعلى الرغم من ذلك حياتهم مليئة بالشقاء والتعب وليس فيها من الراحة ما يظهر

على مولي في صورتها ذات الفستان المكشوف باهظ الثمن ووجهها المليء بالساحيق.

تجاوزت المنشور، ومرت خلال الصفحة لتقف عند زيزي، تلك الجميلة صاحبة الوجه المشرق ترتدي ملابس رياضية بيضاء وتقف بجانب دراجاتها الثمينة، اكتفت بكلمة واحدة كتبتها فوق الصورة:

"بنجور!"

أما تلك فهي جيهان، مرهفة الحس، تفيض مشاعرها في سماء الإبداع، كتبت تعلن عن كتابها الجديد، من عنوانه أدركت ليلى أن جيهان لا تعيش الواقع وإنما هي تطير دائمًا كعصفورة بين الأحبة، في مدينة ليست كهذه، ذات المجاري الطافحة والبلاعات المفتوحة والأرصفة المتهالكة، بل تعيش جيهان في مدينة مليئة بالفراشات الملونة والطيور التي تعزف وتغني والحيوانات التي تتكلم، يجلس بها الأحبة بين الأشجار يتقاسمون ثمرة جوز الهند.

امتعضت ليلى لتلك المشاعر الفياضة، تساءلت، أين هم من واقعها المرر؟ هل بالفعل كل ذلك الحب وكل تلك الراحة يمتلكها هؤلاء، ودت لو تعرف عن أي نوع من المشكلات تواجههم فمهما بلغت مشاكلهم لن تصل لحد الجوع الذي نهش أحشائها ليالٍ عدة نامتها بدون عشاء، توفره لأخواتها الصغار.

استوقفها فيديو الرجل الأربعيني في موسم الصيف الماضي بإحدى المصايف الشهيرة في مصر والمعروفة أنها للأغنياء فقط، يصور بكاميرا الفيديو راقصة مشهورة ببدلة رقص على الشاطئ، يلتف حولها باقة من الأثرياء وأبنائهم، ترقص

ويصفق الرجال وتقلد رقصها السيدات في مشهد جرئ أبهر ليلى وقلب عليها أحزانها، تركت محمولها وأغمضت عينيها، راحت تكلم نفسها:

- ما كل هذا المرح! أليس لهؤلاء أي متاعب في الحياة، كيف يأتون بكل هذا القدر من السعادة والراحة؟ ألم يستحق أبي أن يعيش هو الآخر حياته بعد؟ وقد انحنى ظهره من جَرِّ عربة حمص الشام، وأمي! ألم تستحق هي الأخرى أن تكون مثل هؤلاء السيدات؟ تملك قوت اليوم ولا تبالى الغد، ألا أستحق أنا أن يخلقني ربي مثل أبناء هؤلاء؟ أرقص وأغني مثلهم، وهؤلاء الصغار إخوتي ألا يستحقون أن يستمتعوا بحياتهم؟ يلعبون ويمرحون شَبِعين دون أن يضرب الجوع بطونهم.

وأثناء ما كانت تفكر وتتحسر على نفسها وحال أمها وأبيها وإخوتها، بعث لها طائر الرخ برسالة على الخاص يطلب منها المساعدة، فهو في أزمة حقيقية، يريد أن يشتري هدية لزوجته في عيد زواجهم ولا يستطيع التفكير في نوعية الهدية، أشارت عليه أن يبتاع لها فستانًا شيك أو موبايل حديث، رفض قائلًا لها أن الموبايل كان هديته لزوجته العام الماضي، أما الملابس والذهب فهى كثيرة عندها وجاءها بها في أعياد الزواج السابقة وهو الآن في حيرة. أشارت عليه أن يهديها بكتاب إن كانت تحب القراءة، أو فسحة وتقضية يوم رومانسي في أحد المطاعم، أو يحجز لها حجرة في أحد الفنادق الكبرى، لم يروق له أيَّ من تلك الأفكار قال أنه، يتطوق لأن يأتي لها بهدية تكون ذكرى جميلة منه لا أن يكون يوم وينتهى. ضحكت ليلى من هذه الحيرة التي أدخلها فيها طائر الرخ، مازحته قائلة:

- هتلها ورد يا ابراهيم.

لكنه فاجئها بقوله:

- الورد دا بيجي على طول من غير مناسبة.

تمنت ليلى في داخلها لو تحظى بزوج مثل طائر الرخ هذا، الذي يحتار في هدية لزوجته في عيد زواجهما، فهو لا يحرمها من شيء قط، بل أتى لها بكل ما تتمنى، حتى أن الورد يأتيها بدون مناسبة، اقترحت عليه أن يزورا معًا مكان لم يزوراه من قبل.

عادت لواقعها حين طرق أذنها صوت بكاء عمتها، وكانت تشكي لسعاد ما فعله بها زوجها من ضرب وإهانة دون أي فعل قامت به هي وصفت حاله: وكأن شيطانًا تلبسه، قام في لحظة ورماها على الأرض وظل يضرب وجهها بقبضة يده حتى راحت في غيبوبة من شدة الضرب، وعندما أفاقت وجدت الجيران وقد تجمعوا على صراخها، أخذوها للمستشفى وخرجت منها إلى بيت أخيها، سحبت معها أطفالها الثلاثة فهي لا تأمن عليهم معه، قالت وهي تبكي وترتشف:

- دا متوحش عديم الرحمة والقلب.

هدأتها سعاد، قائلة:

- اصبري لما يجي أخوك وتحكيله، أكيد هيخدلك حقك، هو النهار يشقشق وتلاقيه جاي جارر العربية، منه لله البعيد جوزك عشان يعمل في مراته وفي عياله كده، العيال يا كبدي مخضوضين.

جاء صوت متعهد الحفلات من بعيد ينوه عن اسم المطرب الشعبي الذي سيحيي الليلة بالفرح، استعد أصحاب الليلة وأقاربهم وأحبابهم لاستقبال العريسين اللذين يدخلان الحارة بزفة تأتي بأصوات الموسيقى وضوضاء، تصنعها نفير الدراجات

النارية، يُحيّي المتعهد العريسين في الميكروفون وبدأ الاحتفال بشاب أسمر يحمل زجاجة بايرسول ويشعل فيها النيران مع استمرار تفريغ البيرسول، تتصاعد النيران في الهواء لأعلى...

لم تبالِ ليلى بالعُرس، رقص الشباب بالمطاوى والسنج يثير عندها القرف من كل شيء حولها، فقد سئمت الحارة بل المنطقة بأثرها والأهل والجيران، كرهت البيئة الشعبية التي تنتمي إليها، وتلك الأفعال التي تشمئز منها تمنت لو ان قنبلة ذرية تنسف المكن.

قامت تحضر الطعام لإخوتها وأطفال عمتها قالت أمها انهم يتضورون جوعًا، منذ باكر لم تدخل اللقمة جوفهم.

التف الأطفال حول الطعام يتناولونه في نهم، يمدون أيديهم للصحن في سباق فيما بينهم، كانت ليلى تراقبهم بنظرات الشفقة، عادت لتفتح محمولها، رأت أمامها صورة شاب مفتول العضلات وسيم، يستعرض جسده، لا يكتب شيئًا فوق الصورة، بدى وكأنه يبحث عن معجبين دون أن يعلن ذلك، ابتسمت، تخطتها وراحت تبحر في جروب الأكابر، تنسى فيه واقعها الحقيقي تعيش الخيال والحلم، وقفت عند صورة إيمي بجانب حمام سباحة وفي الخلفية صورة فيلتها كتبت فوقها:

"رغم كل الألم في حياتنا، سنكمل لأن الأمل في بكرة أجمل."

قرأت الكلمات ونظرت لصورة إمي، رأتها تكاد تكون في أواخر الثلاثين من عمرها، في كامل زينتها، أحبت شعرها الكستنائي، شغفها عقد لولي يحيط بعنقها،

همهمت مستنكرة لون العدسات الرصاصية والتي بدت بها عين إمي غير طبيعية، كالقطط، توقفت قليلًا عند فستانها الأبيض الشفاف، تأملته واشتهته.

أفرجت عن تنهيدة حزينة، راحت تتفقد منشورات باقي الأعضاء ، وإذ بصورة الرجل الأربعيني في كامل أناقته وبجانبه زوجته بفستان أسود باهظ الثمن يكشف أجزاء من جسدها، يقفان على سلم دائري رخامي، تخيلت ليلى نفسها بمكان تلك الزوجة، ترتدي الفستان الأسود الأنيق وتقف بجانب الرجل على السلم الدائري، حلقت بخيالها بعيدًا، تخطت حدود الزمان والمكان، أفاقت على بكاء عمتها التي كانت مازالت تحكي عن زوجها وأيامها السوداء معه وتحملها له ولضيق حاله منذ زواجها به، قالت إن أمه تلك المرأة الندابة، تنكد عليها كلما رأتها، ترميها بكلمات السوء والإهانة، تقول لها:

- وشك شؤم من يوم ما جيتي ماشفناش يوم حلو.

نظرت ليلى لعمتها مشفقة عليها، ثم عادت تنظر إلى صور الأكابر والهوانم بشاشة محمولها، دقائق والتفتت عنه، تدير عيناها بحجرتها تتأملها، وقع نظرها على أخواتها وأولاد عمتها يمسحون الصحون، يلتقطون الفتات مما تبقى منهم، حز بنفسها أن الناس بجروب الأكابر في ذلك العالم الافتراضي، ويعيشون في عالم موازي لعالمها الكئيب، لا يشعرون بالفقراء ولا يهتمون إلا بالرقص والسفر والحفلات.

لاحظت سعاد شرود ابنتها وعدم تجاوبها معها وعمتها في الحديث، حسدتها على هدوئها وبرودة أعصابها، وهي ترى عمتها المنهارة في البكاء، لم تكن سعاد تعلم

أن وراء هذا الهدوء يكمن بركان يستعد للانفجار، ولم تسمع ليلى أيَّ من كلمات أمها لها وكانت شرارة الغضب والتمرد، تشتعل بداخلها.

"سوف أقف يومًا في منتصف الطريق أضع نقطة لكل هذا الفقر الذي يحيط بي، فلم أخلق لتعذب روحي وتهان نفسي بحجة القدَر والنصيب، من المستحيل أن يرضى الله للبعض من عباده العذاب والحرمان وآخرون يبالغون في الترف والنعيم، لن أنتظر الموت حتى أرى العدل في السماء، بل إني أريد رؤيته هنا في الدنيا، أريد نصيبي من الحياة ، كتلك التي يعيشها هؤلاء الأثرياء، لا يمكن أن يتركنا ربنا هكذا، لا بُدَّ أنه سينظر إلينا يومًا".

كانت تلك هي كلمات ليلى، كتبتها على صفحتها بالفيس بوك، بعد أن خصت لنفسها رؤيتها وحدها، ثم أبحرت في الصفحات تقرأ الأخبار والكومكس المضحكة ومنشورات الأصدقاء، هذا يمر بحالة نفسية فيكتب ما لديه، وذلك لا يعجبه حال البلد، وآخر لا يهتم فيطلق النكات وهذه الفتاة في حالة حب يظهر من كتاباتها المرهفة الحس، أما تلك الزوجة تحكي في جروب نسائي عن حالتها الميؤس منها، اندمجت معها ليلى لبعض الوقت.

وحين كانت مندمجة في قراءة التعليقات على منشور السيدة التعيسة، تفاجأت بمن يدعوها للحديث على الشات، تعرفه من منشوراته، رجل محترم يبدوا عليه التدين، فبصورته الشخصية يظهر ملتحي، يساعد الكثير من الشباب في إيجاد فرص عمل لهم بالخليج، رحبت به وبادلته الحديث، ظهر من كتاباته لبعض الكلمات لهجته الخليجية، أنبأت عن بقاءه لسنوات طويلة في الخليج، انطلق الرجل في حوار سريع مع ليلى، وكأنه يشتاق لرائحة شيء من بلده، قال إنه بعد أن تخرج ذهب

ليعمل في الكويت وعاش بها، وبالرغم من كل تلك السنوات التي قضاها بها، لم يستطع أن ينسى لبنى.

لبنى هي الفتاة التي أحبها بمصر أيام الجامعة، تحدث عنها وكأنه يراها مازالت أمامه وهو في سن العشرين، قال أنها أذكى وأرقى وألطف شيء رأه في حياته، كانت هي تلك النسمة التي تعبر في يوم صيف حار، وأنها كانت تهوى كتابة الروايات الرومانسية وكان هو كل جمهورها، يقرأ لها ويندمج مع شخصيات رواياتها لدرجة أنه كان أحيانًا يطلب تغيير النهاية بأخرى أكثر حميمية...

لم يتوقف عن الحكي، حتى قاطعته ليلى بسؤاله عمَّا إن كان متزوجا؟

قال:

- تزوجت بالكويت وأنجبت واستقريت بها، لكني أبدًا لم أستطع نسيان لبنى.

جاء صوت متعهد الحفلات من بعيد يعلن عن وصول المطرب، وصفه بـ مطرب الجيل عندليب المنطقة، بدأ أول أغنياته بألبومه الجديد الذي ينوه عنه المتعهد من أول الليلة.

انتبهت ليلى لأحدهم يصيح في أذنها على الشات، يسألها الدعاء له فهو في كرب شديد، وقد طلب الدعاء من معظم الأصدقاء على الموقع، لعل وعسى تقبل من أحدهم دعوة بظهر الغيب، فيستجيب لها ويفرج همه، أثار الشاب فضول ليلى لتعرف مشكلته، قال انه في الرابعة والثلاثين من عمره ولم يتزوج إلى الآن، لا يستطيع توفير نفقات الزواج، قال إن الناس أصبحت تنظر له بعين الشفقة بعد أن كانوا قديمًا يرون فيه رجلًا، فهو يعمل منذ كان صبيًا في الثانية عشر من عمره،

يصرف كل ما يجنيه من عمله على أمه وإخوته، بعد أن مات أبيه وأصبح هو العائل الوحيد لهم، بات لا يستطيع مجارات أصدقائه في اجتماعاتهم بعد أن تزوجوا وصاروا يتحدثون عن ابنائهم، فيقول أحدهم ابنتي فعلت، وآخر يقول ابنى فعل. أما هو فلا يوجد لديه ما يحكي عنه، فلا عيل له ولا تيل.

حاولت ليلى تهدئته ببعض الكلمات اللينة، إلا أن كلماتها زادت من حزنه على نفسه، قال إن تلك العبارات سمعها قبل ذلك عشرات المرات وقد ضاق به الحال ولا يستطيع أن يكمل حياته بهذا الشكل. يشعر بأنه ظلم نفسه كثيرًا، لكن ما بيده حيلة.

دعت له بصلاح الحال، أغلقت الشات وألقت بمحمولها بعيدًا واقتربت من المرأة، تنظر لنفسها وتتأمل جسدها تتحسسه، لم ترَ هذه المرة الفتاة الجميلة متناسقة الجسد، بل رأت ملامح أجهدت من كثرة العمل والإرهاق، وجسدًا لم يمسَّه أحد على الإطلاق، شعرت بدوار برأسها رأت الحجرة تدور بها، اهتزت المرآة وتموجت صورتها بها، وتبدل بصورة الشاب المقهور على نفسه.

جاء صوت أم سيد عاليًا، تسأل المارة عن ابنها سيد وتدعي الله أن يرجعه لها سالمًا، قالت:

- يااارب طمني على سيد، يااارب ماليش غيره.

طلت لها سعاد حدثتها بصوت حنون ونصحتها بأن تدخل لتنام لبعض الوقت، فالليل طويل وسيد قد يعود في الصباح، لكنها رفضت النوم، انتهزت فرصة حديث

سعاد لها لتكشف لها عن سر جارتهم التي يتغيب عنها زوجها بالأيام بسبب عمله، أطالت رأسها لها توشوشها:

- بت يا سعاد، أقولك على حاجة يابت؟

بادلتها سعاد الاهتمام وراحت تنصت لها:

- قولي، شفتي إيه؟

- شفت الواد سنجه وهو داخل عند سلسبيل، في ساعة متأخرة زي دي، الواد بيداري وشه مني، فاكرني مابشوفش بس أنا عرفته.

- إخص عليها السفلة.

- ياعيني عليه جوزها غلبان وشقيان عليها هي وولادها.

- ما هو بردوا غلطان، سايبلها الحبل على الغارب ومسافر على طول.

- آآل على رأي المثل، إن غاب القط العب ييافار.

علا صوت المطرب الشعبي في المكريفون بأغنيته "غلطة" يرددها معه الحضور وبأيديهم زجاجات الخمر يتمطوحون ويتمايلون على بعضهم في انسجام مع اللحن.

قطعت سعاد الحديث مع أم سيد وذهبت للمطبخ تحضر كوب من عصير الليمون وكمادات، ساقعة لتضمض بها ورم عين عطية التي زادها البكاء تورمًا. طلبت من ليلى أن تحضر الفرشة بالأرض لينام عليها إخوتها وأولاد عمتها فقد غلبهم النعاس.

قامت ليلى تلبي طلب سعاد، وكانت في شدة الضيق من صوت المطرب بالميكروفون، استنكرت ما يقوم به هؤلاء أصحاب العرس، قالت أن الصوت عالٍ وهم لا يبالون بشيء، ماذا لو وُجد شخص مريض أو آخر لديه عمل بالصباح ويريد أن ينام، قالت لها سعاد محاولة استعطافها:

- معلش نستحملهم دا فرح والناس ما بتفرحش كل يوم.

لم تفلح محاولات سعاد في تهدئة ابنتها، قالت :

- يعني هما يفرحوا واحنا نتقرف بنهيق الحمار دا.

ثم عادت للفيس بوك، كرت الصفحات في ملل، قرأت بعض المنشورات للأصدقاء، هذا المنشور يلعن صاحبه كل رجل يترك حريمه متبرجات غير مبالٍ بتعاليم الدين، وأما هذا فينشر فضيحة لمخرج معروف، ومنشور أخر في الجروب النسائي لفتاة متزوجة حديثًا، تعرض مشكلة لها مع أم زوجها.

انتقلت بين الصفحات، شغفها الفضول للاطلاع على صفحة الرجل الأربعيني توقفت عند صوره له بحفلة رأس السنة. بالصورة وجوه كثيرة مألوفة ممن تشاهدهم على شاشة التلفاز، إعلاميون وفنانون وزوجاتهم، ملابس فاضحة وأضواء، وفيديوهات غناء ورقص ، هناك صورة للرجل مع رجل أعمال كبير يملك سلسلة من أكبر الفنادق في البلد، وآخر لبناني يمتلك أشهر البواخر في البحر المتوسط، وصور أخرى له مع شخصية خليجية مهمة وسفير دولة من دول البترول الغنية، تطلعت لصور أخرى للرجل على أحد شواطئ أوروبا مع أسرته، بعض الصور لزوجته في سياراتها الفارهة، وأخرى له والسيجار في فمه، كرت

الصفحة لتصل لمنشور بجريدة حكومية، يعلن عن حكم محكمة، بتعويض ورثة عائلة الرجل الأربعيني، بأكثر من مائة مليون جنيه، نظير ما سلبته منهم الدولة من أراضٍ وأطيان جراء قانون الإصلاح الزراعي في الخمسينات.

امتعضت ليلى لذلك الخبر بالجريدة، فوجئت بصورة اخرى بتاريخ ليس بالبعيد، للرجل في المطار بملابس الإحرام، تأملته، الشعر أسود ممشط لأعلى كالمعتاد ولمعة العينين ذاتها الموجودة في كل صورة، قرأت التعليقات من أصدقائه، تتمنى من الله الغفران، وتطلب منه الدعاء.

انتاب ليلى شعور بالحيرة من أمر ذلك الرجل، وتساءلت، ماذا يفعل وكيف يناقض نفسه بتلك الطريقة؟ وماذا عن تلك الطبقة المحظوظة! أيفعل ما يحلو له في الدنيا ثم يذهب ليعتمر فيغفر الله له؟ عن أي من ذنوبه سوف يعتمر! هل تكفيه عمرة واحدة؟ ماذا لو مات في الأراضي المقدسة ودخل الجنة؟ أيتمتع بالدنيا ويفوز بالآخرة! ما هذا الحظ السعيد لهؤلاء الأثرياء؟ كانت تتساءل وعينيها مغرورقة بالدموع، غرقت في حزن لم ينتشلها منه أحد، غير بكاء عمتها، فكانت تفيق عليه وتعود فتلتهمها أفكارها، تمنت لو كان لها ولأبيها وأمها المال الذي يمكنهم من الذهاب لأداء العمرة والتمسك بستائر الكعبة والبكاء، ليغفر الله لهم ما اقترفوا من ذنوب، التي اعتقدت أنها بالتأكيد أقل بكثير من ذنوب ذلك الرجل الأربعيني.

لم تكن تعلم أن حياتها ستتحول للأسوأ بدخولها ذلك العالم الافتراضي، ها هي الآن تغلق الموبايل وتنظر حولها غير راضية، تساءلت في نفسها، ما كل هذا الذي تراه الآن ولم تكن تراه قبل ذلك بهذا الوضوح، فذلك هو مخدعها الذي على حاله منذ طفولتها، لا يروقها الآن، رمت برأسها تسندها على الحائط من ورائها،

وكانت عيناها معلقتان لأعلى، تنظر للسقف، رأته متهالكًا وقد قارب على السقوط فوق رأسها، راحت تترقب الأطفال النيام على الأرض وعمتها التي لا تكف عن البكاء وتتحسر على حالها وتنعي حظها.

كانت شرارة الغضب والتمرد داخلها تزداد في كل ساعة، بل في كل دقيقة تتفقد فيها ذلك العالم الموازي. من خلال شاشة محمولها، على موقع التواصل، راحت تضغط الحروف تكتب منشورًا خصصته لها وحدها:

لقد تجرعنا كأس الفقر أيامًا وليالي، اعتدنا مذاقه حتى خمرنا وبدا علينا السكر والتخبط فلا نستطيع حمل أجسادنا التي تميل بنا يمينًا ويسارا، خانتنا كلماتنا فلا ننطق منها إلا تلك التي تزيدنا شقاءً، أولم يكف لنا تحمل عناء الحياة دون محاولة مضاعفته، لماذا بذل كل هذا الجهد للوصول للاشيء.

قطع أفكارها كلمات أمها سعاد، تحاول تهدئة عمتها وتطلب منها الصبر، فتقول لها:

- احنا الستات مالناش إلا الصبر، اصبري عشان ربنا يحبك وليكِ الجنة.

دعمت سعاد قولها ببعض الأمثلة الشعبية:

- يختي ضل راجل ولا ضل حيطة، هتروحي فين بكوم اللحم دول وهتأكليهم منين .

لم تتحمل ليلى كل هذا القدر من الخضوع والضعف، ودون أن تشعر صرخت في أمها، قائلة :

- أجل مين اللي أنتِ عايزاها تصبر عليه أنتِ مش شايفة وشها عامل ازاي؟ عايزاها تتذل له أكتر من كده، لحد امتى هتفضلوا تصبروا علي الفقر والغلب والهم.

تفاجأت سعاد بموقف ابنتها، حاولت إسكاتها دون فائدة، تراجعت، والتزمت الصمت مع استمرار صراخ ليلى فيها:

- ربنا مابيحبش الضعيف المذلول ربنا بيحب القوي، أنتِ مش شايفة عيشتنا عاملة ازاي دا سكن نعيش فيه! شايفة السقف اللي هيقع فوق دماغنا، شايفة الحيطان اللي اتشققت من الرطوبة، دا عفش نعيش عليه؟

سمعت أم سيد صراخ ليلى، انتابها الفضول لتعرف ما يجرى، نادت على سعاد واستمرت في النداء دون توقف:

- يا سعاد، يا سعاد، في اية عندك، بتتخانقى مع بنتك ليه؟

خرجت لها ليلى، وفي انهيار صاحت فيها. ارتعدت أم سيد والتزمت الصمت، لم تتحرك من مكانها، حاولت سعاد تدارك الأمر، سحبت ابنتها للداخل خوفًا على أم سيد منها، وكانت ليلى مستمرة في رشق الكلمات الموجعة:

- عاجبك شكل الحارة؟ عاجبك الجيران؟

وأشارت إلى أم سيد:

- دي مناظر دي نتصبح ونتمسى بيها كل يوم؟

وفي ومحاولات من سعاد لتهدئتها، بكت ليلى وارتمت على الأرض، جلست سعاد بجانبها، أخذتها في حضنها وربتت عليها، وقالت :

- مالك يابنتي ايه اللي جرالك؟ ما كنتي كويسة.

قالت سلمة وهي ترتشف وتتشحتف:

- إنتِ أصلك ماشفتيش الدنيا اللي أنا شفتها .

- وشفتيها فين الدنيا دي بس، احنا عمرنا ما خرجنا من الحارة .

- أنا ماخرجتش، هي اللي جاتلي لحد عندي .

فطنت سعاد تلميح ابنتها، قالت في ضيق قاصدة ذلك الجهاز بيدها:

- هو الهباب اللي أنتِ جبتيه دا وماسكاه في أيدك ليل ونهار، بدَّل حالك وشقلب كيانك ما كنا عايشين كويسين من غيره وبنحمد ربنا.

التفتت سعاد لأم سيد تطيب خاطرها مما فعلته ابنتها بها، انتهزت أم سيد الفرصة للحديث، حكت أن منذ قليل اخبرها أحد المارة العائدين من الفرح بأن هناك مشاجرة كبيرة بين بعض الشباب، منهم من تحرش بفتاة كانت برفقة أخيها وهي إحدى صاحبات العروس، حدثت مشادة بين الشباب والاخ الذي أخذ أخته وذهب بها بعيدًا عن المنطقة، عاد بعد قليل ومعه شباب من منطقته، ليثأر لنفسه ولأخته، ظهرت السنج والمطاوي والأسلحة البيضاء في أيدي الشباب، وقامت مشاجرة كبيرة أصيب فيها أخو الفتاة بجرح عميق في البطن ونُقل للمستشفى في حالة خطيرة، قيل إنه تُوفي بها...

هدأت ليلى وعادت لمخدعها، نظرت لمحمولها، ترددت في فتح موقع التواصل، دقائق قليلة وعادت لعالمها الافتراضي، وإذ بطائر الرخ يعود من جديد حاملًا بشرى سارة، فبعد تفكير طويل وجد الهدية المناسبة التي سوف يقدمها لزوجته في عيد زواجهم، قال إنه قرر أن يحجز تذكرتين له وزوجته للأراضي المقدسة لأداء العمرة فهذا هو المكان الذي لم يزوراه معًا قط، ووعدها بهدية لإحائها له بالفكرة، وسألها أن تطلب أي شيء تريده وسوف يحققه لها أن كان بمقدوره.

فكرت ليلى في عرض طائر الرخ، خاتم سليمان، الذي سوف يحقق لها ولو جزء بسيط من أحلامها، فقد أوضح لها من كلماته انه على مقدرة عالية، ماذا تطلب؟ فستان سهرة ام حذاء بكعب عالي؟ لمعت الفكرة في عينيها قبل أن تنظر لإخواتها، رأت ملابسهم البالية، فكرت أن عليها التخلي عن أنانيتها وتطلب كسوة لهم، تحميهم برودة الشتاء، انطفأ داخلها ودمعت عيناها وهي تعيد قراءة الرسالة، تقول:

- اطلبي ما تريدين وسوف أحققه لك. احتارت ماذا تطلب، نظرت حولها رأت كل شئ ينقصها، لم تهتدي لشيء، قالت وعينها تقطر الدمع في صمت:

- ادعيلي عند الكعبة، ربنا يرحمني ويرفع عني عذاب الدنيا.

اندهش طائر الرخ من كلماتها وسألها إن كانت تعاني بعض المشاكل في حياتها، قالت:

- لا، فقط أشتاق لأمي التي سافرت إلى باريس لتحضر عرض أزياء لذلك المصمم الشهير هناك.

عادت سريعًا لليلى التي اختارتها وتفضلها عن تلك التي في العالم الواقعي، ففي ذلك العالم الافتراضي هي خريجة المدارس الدولية وتسكن في أرقى الأماكن وتنعم بشكل مجتمعي ممتاز جعلها تنضم لجروب الأكابر ..

بدلت صورتها على الصفحة بصورة أخرى لها بعد أن كانت قد عدلتها في برنامج الفوتوشوب صارت أكثر إثارة.

ابتسمت عندما تذكرت أنها واحدة من أعضاء جروب الأكابر، قرأت المنشورات، تركت تعليقاً على أحد الفيديوهات الموجودة على الجروب لحفل شهري يقام لأعضاء في أحد الفنادق الكبرى، حضره فنانات وإعلاميون ومطربون، صورة للحفل منشورة على أحد مواقع الأخبار الإلكترونية على النت، حكى الخبر تفاصيل الحفل وذكر أسماء بعض المشاهير الذين تواجدوا به وقدم التحية لمقيمَيْ الحفل الرجل الأربعيني وزوجته، تأملت الصور تلك هي المذيعة الشهيرة وبجانبها مطرب من الجيل القديم، كم مرت عليه من السنوات التي غيرت ملامحه؟

فتحت أحد الفيديوهات بها الضيفة المشهورة، لفت سمعها طريقة الكلام الممطوطة التي تتحدث بها الضيفة، على الرغم من حب ليلى الاحتكاك بالأثرياء والانتماء لهم افتراضيًا، وتعرف أن تلك الأمنية لن يكتب لها أن تتحقق أبدا في الواقع، لكنها لم تستلذ تلك اللهجة المعتادة من أبناء الطبقة المرفهة، فهي تكره النغمة المصطنعة التي تخرج مائعة من أفواههم، تهزأ منهم وتقلدهم بسخرية، فتضم شفتيها على شكل قلب، وتمد في الحروف والكلمات عند نطقها.

أوقفتها مجموعة أخرى من الصور، الرجل الأربعيني في مكان هام، يرتدي بدلة كاملة، على غير العادة، وقد تخلى عن سلسلته الذهبية، وحول عنقه كرافات، بدلًا

عن الوشاح الحريري، بجواره رجال مهمين بالدولة، وزراء حاليون وسابقون وأعضاء مجلس شعب وآخرون يتقلدون مناصب حساسة، كان لهم يد في التغييرات السياسية التي مرت بها البلاد. أظهرت الصور هؤلاء الرجال في قمة أناقتهم ببدل وربطات عنق باهظة الثمن، انتبهت ليلى للوجوه المبتسمة وبريق الأعين الذي لا ينطفئ أبدًا، مررت أناملها على الشاشة تتحسس الأشخاص بالصور، أرادت أن تتأكد من حقيقة هؤلاء، هل هم حقًا أناس حقيقيين مثلهم، أم جنس آخر لا تعرفه؟ سرعان ما حركت الشاشة لأعلى بإصبعها، لتبعد الصور عن عينيها. ها هي صديقتها الافتراضية جيهان، تلك الحالمة التي لا تهتم إلا بالحب، وتلك هي رولا، تشكي ارتفاع مصروفات مدرسة أبنائها، تضاعفت بسبب ارتفاع قيمة الدولار الذي تتعامل المدرسة به، وهذه جوكا، عرضت فيديو تكريمها في سهرة لأعضاء جروب الأكابر، يحضر التكريم سمو الأميرة وسمو الشيخ، يقدم لها هدية ثمينة، يوثق الحفل مصورين وإعلاميون ويسلمها التكريم الرجل الأربعيني الذي يغدق الكثير من المال على أصحابه وأحبابه.

لم تنس ليلى أن تضع قلبًا أحمر على منشور جوكا. ثم شردت تفكر وتتساءل كيف لا يشعر بها أحد، فكل ما يفصلها عن هؤلاء هو شارع أو اثنين، لماذا لا ينظر الأغنياء وراءهم فيروا الفقراء أمثاله، ما الذي يمنعهم عن ابداء أية مسؤلية تجاههم، يكتفون بأنفسهم وكأن لا أحد يستحق الحياة غيرهم يغدقون على الأغنياء منهم بالهدايا والأموال ويبخلون بها على الفقراء المحتاجين لها بالفعل، يأكلون حتى تصرخ بطونهم من التخمة، يرتدون أبهى الملابس، ويمرحون طوال الوقت.

أدارت عينيها في المكان، تنظر لحالها وحال إخوتها، وفي داخلها وحش لا يكف عن النهش، تتساءل، لماذا لا يسعى أحد هؤلاء الأثرياء لإنقاذ المنسيين على الأرض من عنائهم المستمر مع الفقر والجوع؟ تقرأ منشوراتهم التي تلعن المال وتتعجب كيف يحسدون الفقراء على سعادة وهمية لا يشعرون بها وأمعائهم تتقلص من الجوع، وأجسادهم ترتجف من البرد ليلًا. أغلقت المحمول وهي تردد:

سعادة إيه دي اللي من غير فلوس؟

فتحت التلفاز تشغل نفسها بمشاهدة برامجه، تفاجأت بالرجل الأربعيني في أحد البرامج السياسية، مع مذيع معروف بموالاته للنظام، يرتدي البدلة وقد أحكم عنقه بكرافات أنيق، يظهر تواضعًا، فلا يمسك السيجار ولا يحيط أصبعه خاتم بفص أزرق كبير. يتكلم بلباقة بحكم منصبه في مكان مهم بالدولة، عن التنمية الشاملة التي تهتم بها الدولة في كل المجالات.

راقبت ليلى طريقة كلام الرجل وحديثه، رأته رجل عادي، حديثه ممل، تحدث عن إنجازات لم تشعر هي بها، يعد بالأفضل، ولم ينس أن يذكر الرئيس الملهم، كل دقيقتين، يرجع له كل ازدهار حدث بالبلد، منوهًا عن أن كل ما يحدث هو بناء على تعليمات الرئيس.

جاء صوت أم سيد تلك المرة بالمريخ والعويل، خرجت ليلى مسرعة للحارة وقفت في دهشة هي وأمها سعاد وعمتها عطية، وهم يرون زوج سلسبيل جارتهم، يقف وبيده سكين ملطخ بالدماء وعيناه مفتوحتان في ذهول وعلامات الجنون على وجهة.

قالت أم سيد أنها غفلت قليلًا، وهي في الشبَّاك تنتظر عودة سيد، ولم تشعر بزوج سلسبيل عند عودته للحارة، ولكنها قامت على صوت ضرب ومشاجرة، انتبهت لصوت صراخ أتٍ من بيت سلسبيل، بعد دقائق رأت سنجة، يخرج مهرولًا من البيت يلملم ملابسه ومن ورائه زوج سلسبيل وبيده السكين ملطخًا بالدماء، قتلها وأطفالها يبكون ويصرخون من الفزع والخوف.

ازدحمت الحارة بالأهالي، وجاءت أم القتيلة باللطم والعويل، دقائق وأتت الشرطة.

كان الزوج واقفًا مكانه وبيده السكين، لم يتحرك ولم يتحدث إلى أحد وعلامات الذهول على وجهه، بقيَ حتى حمل رجال الإسعاف جثة سلسبيل، وأخذته عربة الشرطة. احتضنت سعاد الأطفال وأخذتها معها الى شقتها. انفض الجمع ولم يتبقى بالحارة إلا نسائها، بدأ بينهم الهمز واللمز، وأم سيد تتزعم النميمة، أخبرتهم بمارأته على سلسبيل أول الليلة وهي بالشَّباك.

قارب الليل على الرحيل، عادت ليلى لحجرتها تنظر للتلفاز المفتوح دون أن ينتبه له أحد، تذَكرت الرجل الأربعيني الذي كان يتحدث عن الرخاء والإنجازات لتكتشف أن البرنامج قد انتهى، عادت للمحمول تحاول نسيان ما حدث، فتحت الموقع لتجد صورة الرجل يقف بجانب صديق له يحمل سلاحًا يتباهى به، دققت النظر، عرفته انه هو أشهر بلطجي للنظام، والذي كان يأتي للحارة، في موسم الانتخابات، يأخذ الشباب من المسجلين والأشقياء فقد كان له دور هام في العمليات الانتخابية وتقفيل اللجان لصالح النظام، لفت نظرها، الرجلان يرتديان تيشرتات سوداء، كتب عليها باللغة بالإنجليزية، تتدلى السلسلة الجنزير الذهبية على صدريهما، كتب الرجل الأربعيني فوق الصورة:

"أجدع واحد في البلد"

رفعت سعاد صوتها على ابنتها تأمرها بالذهاب لإخبار أبيها بما حدث وإحضاره ليرى حلا في مصيبة عمتها وأطفالها. لم تبالِ ليلى بغضب أمها، هربت إلى عالمها الافتراضي، راحت تتصفح موقع التواصل، أحدهم أرسل إليها طلب صداقة باسم تعرفه شعرت بشيء ما بداخلها ناحية الاسم، تفقدت صفحة الشاب تأملت صورته، تذكرته:

إنه إبراهيم، ذلك الشاب الذي كان يهيم بها في صغره، تغير شكله، فقد أصبح أكثر نضجًا وله لحية قصيرة، يرتدي قميصًا غامق وبنطلون جينز ويقف داخل أحد المولات الكبيرة. قبلت ليلى طلب الصداقة وبعد دقائق معدودة سمعت صوت الرسائل التي تأتيها منه وفي لهفة فتحت الشات.. ها هو الفتى المتيم ينطق بكلمات الترحاب والمودة، ظهر من بينها حبه القديم، لم يزل ينبض به قلبه إلى الآن.

لم تلتفت ليلى لأمها التي نهرتها ثانية، قرأت الرسالة، أعادت لذاكرتها أيام مراهقتها عندما أحبت إبراهيم الذي هام بها من أول لقاء، ظروف حياته المتعثرة منعتهم من الارتباط، سألته: كيف وصل إليها؟ فقال، إنه لم يتعرف عليها في البداية، ولكن عندما دقق النظر لصورتها عرفها على الفور، قال إنها ما زالت جميلة كما تركها، سألها عن تلك البيانات التي تضعها على صفحتها والمغايرة لواقعها، أجابته في استهزاء:

- يعني عايزني اكتب محل السكن إيه؟ حارة المراكيب.

صمت إبراهيم ولم يكتب شيئًا، قطعت ليلى الصمت بسؤاله عن حاله وأحواله وإن كان قد تزوج، قال لها إنه تعرض لمشاكل عدة اضطرته للسفر هربًا من ديونه ومشاكله، انتقل لإحدى البلاد العربية الغنية، وعندما تحسنت ظروفه تزوج من فتاة مصرية وأنجب منها بنتًا وولدًا، لكنه وإلى الآن لم يشعر مع زوجته بالحب الذي أحبه لها، نبض قلبها بقراءتها الكلمات، ذكرتها ببراءتها ونقائها، قال إنه وبعد أن تركها تعرف على الكثير من البنات، لكنه لم يجد أرق منها ، يشتاق عيونها الحالمة وروحها الملائكية، لم يحسها في أي فتاة غيرها ولا حتى زوجته، فبالرغم من حبه لها ولأطفاله منها، إلا أنه لم يصل بإحساسه معها ذلك الذي كان يحسه ويشعر به بجانب ليلى التي أحبها.

أفاقت ليلى من شرودها على غصة بنفسها جراء كلمات ابراهيم التي ألمتها، نظرت لنفسها بالمرآة لم تجد ليلى التي تكلم عنها، بل رأت فتاة آخرها صنعتها قسوة الحياة، ولم تعد روحها ملائكية.

أفزعتها أمها بصوتها العالي، تنهرها بشدة وقد نفد صبرها، لتقوم من مخدعها وتذهب لأبيها تستعجله المجيء ليتصرف في تلك الورطة التي وضعته فيها أخته عطية بغضبها من زوجها ومجيئها إلى هنا بثلاث أطفال، فمن أين سوف يطعمهم؟

ارتدت ليلى طرحتها، لم تحكم رباطها جيدًا، تدلى منها أطراف شعرها، تركت الحارة من ورائها في حالة غليان، قاصدة الكرنيش، انزعج حسن عند رؤيته لها، فالوقت متأخر، إلا أنها لاحقته بأخبار الحارة المزعجة وما حدث لعمتها عطية، حكت له عن سلسبيل وما فعله زوجها بها، وأخبرته أن سيد لم يعد حتى الآن وأم سيد ما زالت بالشبَّاك قلقة عليه.

ضرب حسن بيده كفًّا على كفٍّ وأشار عليها بالانتظار، فأذان الفجر قد أوشك، وها هو سوف يعد عدته ويذهب معها للحارة.

جلست ليلى على السور من ورائها النيل، تتأمل الفنادق الشهيرة، في الجهة المقابلة، والأبراج العالية تذكرت ذلك العالم الموازي على محمولها، تخيلت نفسها تسكن إحدى شقق تلك الأبراج، وبينما كانت تبحر بخيالها، رأت سيارة إسعاف وقفت أمام أحد الفنادق الشهيرة صعد رجال الإسعاف للفندق وبعد دقائق خرجوا منه حاملين رجلًا طاعنًا بالسن وقد شرب الخمر حتى الثمالة.

كان الرجل شبه فاقد للوعي ومن حوله امرأتان إحداهما عرف من حديثها أنها ابنته، أما الأخرى كانت تلقي بجسدها شبه العاري عليه وتحاول إفاقته. أثارت المرأة غيرة الابنة التي غمرتها بسيل من الشتائم ونعتتها بأفظع الصفات ونهتها عن الاقتراب من أبيها، صاح أحدهم لطلب الماء للعجوز لإفاقته، لكن العجوز رفع رأسه الثقيل وطلب الويسكي بدلًا عنه.

وضع رجال الإسعاف الرجل بالسيارة ومعه ابنته والمرأة وبينهما سيل من الألفاظ البذيئة وتهديد ووعيد، قبل أن تترك السيارة المكان مسرعة لوجهتها.

اندهشت ليلى من المشهد، كادت ان تضحك، لولا أن انتبهت لرجل ضخم ومعه امرأة شقراء وبعض النساء والرجال يخرجون من الفندق، كانت وجوههم مألوفة لها، يرتدون ملابس سوداء غريبة عليها أرواب فضفاضة بأكمام واسعة ورسوم ذهبية، فوق رؤوسهم يضعون الطراطير، استقلوا سياراتهم الفارهة وانطلقوا بها مغادرين.

صمتت للحظات لم تتخيل أن ترى الرجل الأربعيني بالفعل في الواقع، ولا ترغب أن تعلم بوجود هؤلاء إلا بالعالم الموازي. نَهَر حسن ابنته، فقد نادى عليها أكثر من مرة وهي ما زالت شاردة بعيدًا بأفكارها.

سمع أذان الفجر يجوب السماء، حين كان حسن يدفع عربته وبجانبه ليلى يعبرون الطريق، اتجهوا للشارع الجانبي، ثم انحرفوا لتلتهمهم الحارة المتفرعة منه، سار في طريقه لمسكنه، ظهرت المقابر على يمينه وبعض المارة يرفعون أيديهم بالسلام ويرد عليهم دون اهتمام، شهد عمال الفراشة يرفعون الكراسي وخشب المسرح الذي أقيم عليه الفرح، غض بصره عن شاب وفتاة، يستتران في الظلام يتبادلان القُبلات، قابله بالطريق رجل ملتحٍ يتوجه نحو الزاوية الصغيرة ليلحق بالمصلين في صلاة الفجر، يُفاجَأ بالشاب والفتاة، ويستغفر الله بصوت عالٍ، كان طريق العودة ملغم بالسكارى العائدين من الفرح، مر بورش السمكرة والكاوتش والحدادة، ظهرت عشش الصفيح وبيوتهم الصغيرة لا يفصلها عن بعضها إلا أمتار قليلة، لم تكن الحارة كعادتها ساكنة.

سار حسن يدفع عربته، شاهد أهل الحارة وقد أصابهم القلق والوجوم، النسوة جالسات على الأعتاب يتحسرن على سلسبيل وما حدث لها، وأم سيد بالشبَّاك تنتظر عودة سيد، تضرب بيدها على الأخرى وتردد:

- لطفك يا رب.

وقف حسن يركن العربة أمام باب البيت، سألته أم سيد السؤال الذي تكرره طول الليل على كل من يمر أمامها:

- ماعرفتش حاجة عن سيد يا حسن؟

أشاح حسن بيده في قلة حيلة، تركها ودخل بيته رأى عطية أخت، ركضت نحوه تحتضنه، بكت بشدة وكشفت عن جسدها تريه الكدمات والسحجات وتشكي له فعل زوجها بها.

نظر حسن لها في ألم، ذهب بعيدًا عنها دون أن ينطق بكلمة، تركها ليدخل حجرته.

نظرت عطية لسعاد وليلى في اندهاش، وذهبت كلٌّ منهما في صمت دخلت سعاد الحجرة لحسن، حاولت الحديث معه بشأن عطية، قالت أن عليه أن يأخذ لها حقها من زوجها ذلك المفتري. لم يرق لحسن كلام سعاد، خرج من الحجرة يواجه عطية، قال أنه لا يستطيع تحمل نفقاتها ونفقات أطفالها وأنه على قد حاله، كما ترى، وفي رقبته كوم لحم يعافر هو وزوجته حتى يستطيع إطعامهم، قال أنه سوف يخرج الآن ليبحث عن زوجها ويأتي به لأخذها هي وعياله منها، فهو المسئول عنهم.

لم تحزن عطية كثيرًا من موقف أخيها، بل عذرته، وذهبت لتوقظ أطفالها وتستعد للذهاب لدارها.

كان النهار قد دب مخالبه بأركان الحارة، عندما خرج حسن يبحث عن زوج عطية، ليُفاجَأ برجل الشرطة يتقدم من بعيد ويتوجه ناحيته، سأله عن بيت سيد، نظر حسن إليه في ريبة ودون أن ينطق شاور له على شبَّاك أم سيد التي انتفضت من مكانها مفزوعة:

- في ايه يا بيه؟ سيد عمل ايه؟

- والدة سيد على العزب؟

- أيوة يا بيه، هو عمل أيه؟

طلب الشرطي منها المجي معه، حاول حسن الاستفسار منه عن سبب الاستدعاء، قال:

- ليه يا باشا؟ دا أم سيد ست غلبانة وطول عمرها في الحارة ماشفناش منها حاجه لاهي ولا سيد ابنها، دا بياع غلبان، صحيح بيتنطط في القطرات وسايب أمه قلقانة عليه ليل نهار، لكن كله عشان أكل العيش وانت عارف يا باشا الوضع على قده والحال مش قد كده والحياة صعبة على الناس.

قاطع الشرطي حسن، قال في صوت يملؤه الألم:

- عايزنها في المستشفى، تتعرف على جثة ابنها سيد وتستلمه من المشرحة.

صمت الشرطي وسط ذهول حسن وأم سيد، التي لم تصدق ما سمعت، تابع بصوت مخنوق:

- خانه وزنه، ووقع تحت عجلات القطار ليلة أمس، بعد مشاجرة بينه وبين رئيس القطار على التذكرة، التي لم يستطع دفع ثمنها، الأمر الذي جعله يقفز من القطار وهو يسير بسرعته، مما أدى إلى وقوعه تحت عجلاته، وانفصال رأسه عن جسده.

تجمع أهل الحارة حول شبَّاك أم سيد، حين كان الشرطي يعرض على حسن بطاقة سيد للتأكد من شخصيته وأنه هو الموجود بالمشرحة بالفعل. دخلت أم سيد في نوبة صدمة، ظلت تردد كلمات وجمل غير مرتبة، لا معنى لها.

وقفت ليلى في الشبَّاك، سمعت ما جرى لسيد ورأت الصدمة على أمه، دخلت حجرتها واحتمت بمخدعها، لم تنطق شفتاها بكلمة، أسندت رأسها للوراء وعيناها تنظران لأعلى في صمت وانكسار، لم تشعر بكم من الوقت مر عليها، تحسست محمولها هاربة به إلى موقعها الافتراضي، فاجئتها صورًا للرجل الأربعيني وزوجته بالملابس الغريبة ذاتها، تلك التي شاهدتهم بها منذ قليل حين كانت على الكورنيش تستدعي أباها للعودة للبيت. أوضحت الصور شكل الفندق من الداخل، تأملت الصور، يجلس الرجل على البار ويضحك، بيده كأس الخمر، وبالآخرة يمسك ذراعًا تنزف وصورة لزوجته تمسك بيدها ساقًا تقطر منها الدماء ومن حولهما أشخاص بملابس سوداء وأقنعة مخيفة يمسكون برؤوس وكأنها بشرية يحاولون قضمها.

سار في جسد ليلى رعشة، تماسكت لتقرأ ما كتب فوق الصور، وعلمت أنهم يحتفلون بعيد الهالويين، وتفاجأت أن ليلة أمس كانت ليلة الهالويين.

أغلقت المحمول بعد أن أوقفت حسابها على موقع التواصل نهائيًا، واكتفت بالنظر لسقف حجرتها المتهالك تفكر في ليلة رعب حقيقية قضتها بالحارة، حين دخلت عليها أمها تقول في حسرة:

- يا كبدي عليك يا سيد، الولية أم سيد مخها ضرب بعد ما سمعت خبر ابنها.

شاهدت سعاد حزنًا عميقًا يكسو ملامح ابنتها التي استسلمت لبقائها في قاع البئر، حيث لم ترَ سوى ظلام حالك، نظرت لها سعاد بعين مشفقة، وقالت:

- مالك يا بنتي؟

بصوت مكسور، أجابت ليلى:

- ماليش يا أمي، سيبيني لوحدي عايزة أتأمل سقف أوضتي.

- والله، وإيه بقى الدموع اللي في عينيكِ دي، عارفة انك حزينة على سيد وأمه، بس كمان عارفة إن حالنا مش عاجبك، نعمل إيه، ما حلتناش حاجة، وإلا بقى نسرق أو نبيع نفسنا ونفسد.

جاوبتها ليلى:

- مش احنا الفسدة يا أمي، لو عاوزة تشوفي الفسدة واللصوص، افتحي التليفزيون، إحنا اللي عملنا من الكلاب أسياد.

***

تمت بحمد الله

المحتويات

الدخلاء 3

تم الاستلام وشكرًا 16

سيدنا 19

صورة العام 34

التعويذة 37

سيرة ذاتية 42

سلمى 50

صعودٌ مُخجِل 55

الندَّاهة 90

نافذة على العالم الموازي 107

المحتويات 144